رواية

جَبَلُ الدهشَة

ممدوح الشيخ

الكتاب: جبل الدهشة (رواية)

المؤلف: ممدوح الشيخ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ©

لا يجوز إعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو نقله في أي شكل أو بأي وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك النسخ أو التصوير أو المسح الضوئي أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع ، كما لا يجوز تعديل المادة الموجودة في الكتاب (أو أي جزء منها) أو تحويرها أو لخلق عمل جديد.

تنويهٌ لازمٌ

أولاً: المعلومات الواردة بالرواية عن: الحياة البرية في كينيا ، وعن ظاهرة الأحلام ، وعن "علم نفس الحيوان" ، وعن أحداث رواندا ، جميعها مستقاةٌ من مصادرها.

ثانيًا: فكرة "تضمين" الرواية عملاً سينمائيًا ، وكذلك الفيلم نفسه الوارد بالفصل الثالث (جبل الدهشة) هو من ابتكار كاتب الرواية: باسمه وشكله ومضمونه.

ممدوح الشيخ

الفصل الأول
أَنَـاقـةٌ أفـريـقـيـةٌ

1

تُشرِق الشمسُ على غاباتِ السافانا الأفريقيةِ ساخنةً فتيَّةً وتُرسِلُ أَشِعَتَها عَلى بسَاطٍ مِن الخُضرَةِ اليَانِعةِ فتتعانقُ

الـخُضرةُ والصُفرةُ ، ويَتَحَرَّكُ الـهَواءُ مُنعِشَاً ورَطبَاً وبَاعَثَاً عَلى البَهجَةِ والتَفاؤلِ..

فَهُنا تـمتَدُّ نِطاقاتُ الـحَشائِشِ مُوازيـةً لِلغابـاتِ كأنـَّها حَديقةٌ تُحيطُ بِقَصرٍ عَامِرٍ. ويتدرجُ الانتِقالُ مِن الغِطاءِ الغابيَّ ، الشَّـجَري الكَثيـفِ ، إلـى اخـتِلاطِ الـحَشائِشِ بِالأشـجارِ ، ثـُم تَضمَحِلُّ الأخيرةُ ، وتَسودُ الأُولى.

ويَبـدو الـمَنظرُ الـمُمتَّدُ على مَـدِّ البَصَـرِ كما لـو كَـانَ لا نـهائياً ، فيـه حَشـائِش البريـري الطويلـةُ وحشـائِشُ الإسـتبس القَصيرةُ وحَشائِشُ السافانا المُختَلطةُ بِالأشجارِ.

والسـافانا حَشـائِشُ كَثيفـةٌ مـُختَلطةٌ بِالشُّـجيراتِ على تُخُومِ الغَاباتِ المَداريةِ. وهُنا تَكتَسي الأرضُ بِالنَبَاتاتِ اكتِساءً تَاماً ويُراوِحُ ارتفاعُ الحَشَائِشِ بَين سِتّةِ أمتارٍ واثني عَشرَ مِتراً.

يَصنَعُ الـمَطَرُ الغَزيرُ وَفرَةً في كُلِّ شيءٍ ، ففي الصيفِ يَسقُطُ الـمَطَرُ بِغـزارةٍ خَمسَـةَ أشـهُرٍ ، وأحياناً ثَـمانيةَ أشـهُرٍ كُلَّ عامٍ. أمّا فَصلِ الجَفافِ فهو الشِّتاءُ.

وفيه يَأتي الغُرباءُ ، ومُعظَمُهم سَائِحون غَربيون وعَربٌ يُفَضِّلون قَضاءَ الشِّتاءِ في هَذَا المَشتى الرَّائِعِ الذي تُشَكِّلُ الطَبيعةُ زِينَتَهُ الأَبهَى.

ولا أَحَدَ مِن هَؤلاءِ السَّائِحينَ القَادِمينَ لأجلِ السافاري يَبحَثُ عن فَنادقَ فَاخِرةٍ ، ولا سياراتٍ مُكَيَّفةٍ ، ولا صَالاتِ رَقصٍ ، ولا دُورِ أوبرا على الطِرازِ المِعماريّ الأوروبيّ ، ولا عَن دُورِ سينما ثُلاثيّةِ الأبعادِ ، ولا مَلاهٍ تبهرُ الزُوَّارَ بِالإضاءةِ الصِّناعيّةِ المُبهِرةِ.. ..

إنَّهُم لا يَبحَثون عَن أشكَالِ قَضَاءِ الوَقتِ التي يُمكِن تَصميمُها بِخيالِ الإنسانِ وتَصنيعُها بِيَديه. هُنا الجَمالُ الحَقيقيُّ والمُتعةُ الأعلى.. ..إنَّها الأَشياءُ الطَبيعيّةُ التي لَم تَتدَخَّل فيها يَدُّ الإنسانِ إلا بِأقلِّ قَدرٍ ، فَالبَطَلُ الحَقيقيُّ هُنا هُوَ الطَبيعةُ البِكرُ كَما خَلَقَها الله ،سُبحَانَهُ وتَعالى.

وفي الشتاءِ يَنبِضُ قَلبُ العاصِمةِ الكِينيّةِ نيروبي بِالحَياةِ .. .. وتَدبُّ فيهِ حَرَكةٌ قَويّةٌ عِندَما تَبدأُ الوُجُوهُ الغَريبةُ في الظُهُورِ بِكَثَافةٍ كَبيرةٍ في صَالاتِ الوُصولُ في مَطارِ جومو

كينياتا الدولي ومِنها إلى رُدهاتِ الفَنادقِ ، وعندئذٍ يَبدأُ أدلةُ رِحلاتِ السافاري في البَحثِ عَن رِزقِهم.

فَالسياحَةُ تُمثِّل نَشَاطًا اقتصَاديًا مُهمًّا في كينيا. ويزورها كُلَّ سَنَةٍ حَوالي نِصف مِليون سائِح للاستِمتاعِ بِالمَنَاظِر الطَبيعيّةِ الجَميلةِ لِلمنطَقةِ السَّاحِليّةِ ، ولِمُشَاهَدَةِ الحَيواناتِ البَريّةِ وتَصويرِها في رحلاتِ السافاري.

ويَزيدُ ما تُدِرُّهُ السِياحَةُ على البِلادِ عن 200 مِليون دُولارٍ أمريكي سَنَويًا. كَمَا يُوفِّرُ النَشاطُ السياحيُّ فُرَص عملٍ لِعَشراتِ الآلافِ مِنَ الكينيين.

ومَا إن يَقتربُ مَوسِمُ سِياحَةِ السافاري حتَّى تَبدأ أرتالُ سيّاراتِ الدَفعِ الرُباعيّ بِالتَحرُّكِ كُلَّ صَبَاحٍ زَرافاتٍ ووُحداناً.. ..حَامِلَةً أفوَاجَ البَشَرِ مِن الفَنادِقِ وإليها.. ..في رحلاتٍ أَشبَهَ بِحَرَكَةِ النَّحلِ: كثيفة لكن منظمة.. ..فَلا مَكَانَ فيها لِلفَوضى.. ..لَكِنَّ الخَطَأَ وَارِدٌ دَائِماً ، فَالكَمالُ للهِ وَحدَهُ.

"نَعَم الكَمَالُ للهِ وَحدَهُ"

قَالَها مُحمَّد خَليفة دَليلُ الرحلاتِ الكَهلُ وهَو يُحاوِلُ الاعتِـذارَ لَفـوَجٍ سِـياحيٍّ خَليجـيٍّ لِتبريـرِ أخطـاءٍ تَنظيميّـةٍ فـي رِحلَتِهِم ، وأَردَفَ قَائِلاً:

"السَّـائِحُ الـخَليجيُّ بِصِـفةٍ خَاصَّـةٍ يُهمُّنـا .. ..ولَـيسَ السَبَبُ أَنَّهُ سَائِحٌ غَنيٌّ كَمَا تَظنّون ، بَل لأَنَّنا ، كَمُسلِمين نَعمَلُ في قِطاعِ السياحَةِ نحِبُ أن نَتَعَامَل مَعَ السَّائِحين القَادِمين مِن دُولٍ إسلاميّة ، فَكَثيراً مَا تَتسبَّبُ الفُروقُ الثقافيةُ الكَبيرةُ بَيننا وبَين السائِحين الغَربيين في مُشكِلاتٍ مُحرِجةٍ".

وابتَسَمَ ابتِسامةً تَجمَعُ بَين الحَياءِ والمَودَّةِ ، وأشارَ إليهم لِيَجلِسوا في رَدهةٍ فُندُقُ ستانلي العَريقِ قَليلاً حتَّى يَتمَّ

استِكمالُ إجـراءاتِهم التـي تَـأخَرت بِسـبب ازدِحـامِ الـموسِم.. ..فهذِهِ ذُروَتُه.

اشرأبَ مُحمَّد خليفة قَبلَ أَن يُنهيَ كَلامَهُ مُتعَجِّلاً وبَدا أنَّ سَبَباً قَوياً دَفَعهُ لاستِقبالِ شَخصٍ مَا ، لَكِنَ فَوجَ السائِحين الخَليجيين الذين تتَّبعُوهُ بِنَظرِهِم فُوجِئوا بِأنَّـه تَرَكَهُم لِيَتَحَدَّثَ إلى سَيدةٍ يَبدو بُوضوحٍ مِن مَلامِحِها الشَّقراء ومَلابِسِها أنـَّها غَربيّةٌ.

واندفَعَ شَابٌ مِنهُم مُتَجِها إلى المُرشِدِ الكيني والغَضَبُ يُطلِقُ أَلسِنَتَهُ – بَل حِمَمَهُ – مِن كُلِّ مَلامِحِ وَجهِهِ ، ورَفَعَ صَوتَهُ مُحتَجَّاً:

"إنَّ كَلامَكَ لَم تَمُرَّ عَليهِ خَمسُ دَقائِق .. ..ثُم تَقطَعُ كَلامَكَ مَعَنا وتَترُكنا لأجلِ سائِحةٍ غَربيّة..إسمَع..."

وَوضَعَ مُحمَّد خليفة يَدَهُ على كَتِفِ السَائِحِ الغَاضِبِ مُهَدِّئاً وقَالَ:

"أرجوك .. .. الأَمرُ لَيس كَما تَظُنُ مُطلَقًا .. هَذهِ السَّيدةُ تَربِطُني بِها عَلاقةٌ إنسانيةٌ خاصةٌ جِداً وهي لَيست "زبونـًا" يا سيّد؟ .. عَفوًا ما اسمُك؟".

"حَمَد .. اسمي حَمَد".

قَالَـها الشَّـابُ الـخَليجيُّ بِنَبـرةٍ هَادِئـةٍ ، وقـد تَـحوَّلَ مِـن الغَضـبِ إلى الـحَرَج. واعتذرت السَّيدةُ مِنهما .. وانسَحَبَت في هُدوءٍ.

تَلاحَقَت التَحولاتُ في مَوقِفِ حَمَد ، وبِالتَدريجِ حَلَّ فُضُولٌ قَاتِلٌ محلَّ الضَجرِ والغَضَبِ السَّابِقين. وقد بَدَا عَلى مُحمَّد خليفة أَنَّهُ يَتمهَّلُ حَتَّى تَبتَعِدَ السّيدةُ بِقَدرٍ كَافٍ قَبلَ أَن يَقُصَّ على حَمد قَصَّتَها:

"يا سيّد حَمَد هذه سَيّدةٌ أميركيةٌ اسمُها ماري ماك آرثر عُمرُها خَمسَـةٌ وخَمسون عَامًا .. .. مُتخَصِّصَـةٌ في عِلمِ نَفسِ الحَيوانِ".

ولَـم يَسـتَطع حَمَـدُ مَنـعَ نَفسِـهِ مِـن مُقَاطَعـةِ مُحَدِّثِـهِ ، فقَالَ:

"مُتخَصِّصَةٌ في ماذا؟"

وكَرَّرَ مُحمَّد خليفة ما قَالَهُ وهَوَ يَضغَطُ على الحُروفِ كَنَوعٍ مِن التَأكيدِ:

" مُتخَصِّصَةٌ في عِلمِ نَفسِ الحَيوانِ ، جَاءَت هُنا قَبلَ سَنَواتٍ مَعَ زَميلٍ لها اسمُهُ الدكتور جون بيري تومسون ، وهو أيضاً كَان مُتَخَصِّصًا في العِلمِ نَفسِه. وهوَ كَما يَبدو مِن اِسمِهِ عِلمٌ حَديثٌ نِسبيًا ، ويَعتَمِدُ في المَقامِ الأولِ عَلى جَمعِ المُلاحَظاتِ عَن سُلُوكِ الحَيواناتِ في بِيئاتِها الطَبيعيّةِ. ولِهَذا اعتَادَت أن تَأتي إلى هُنا في رحلاتٍ طَويلةٍ هيَ في الحَقيقةِ مُهِمّاتٌ عِلميّةٌ لا نُزهات".

وأَكمَلَ مُحمَّد خليفة وقَد نَجَحَ في السَّيطَرَةِ على ثَورةِ الغَضَبِ التي استَولَت على حَمَد عِندَمَا ظَنَّ أنَّ في الأَمرِ تَفرِقَةٌ في الاهِتمامِ على أَساسِ لَونِ البَشرة .. .. وأَشَارَ مُحَمَّد خليفة لَحَمَد ليَجلِسا في مِقعَدَين مُتجاوِرَين وقَالَ:

"لَقَد اختَفَى زَميلُهَا بِشَكلٍ غَامِضٍ قَبلَ عِدّةِ أَعوامٍ ، وَهُوَ عَلى الأَرجَحِ مَاتَ ، لَكِنَّها مَا زَالَت كُلَّ عَامٍ تَأتي إلى هُنا لِلبَحثِ

عَنْهُ أو عَن بَقَايا جُثَّتِه ، وأَنا أَحمِل لَها مَشَاعِرَ مُختَلَطَةٍ. فأنا مِن نَاحيةٍ مُشفِقٌ عَليها جِداً ، ولَكِن لا أُخفي عَليك أَنَّني مِن نَاحيةٍ أُخرى مُتعَاطِفٌ مَعَ هَذا الوَفاءِ الإنسانيّ ، وفي الوَقتِ نَفسِهِ أرى إصرارَها يَستحقُّ الاحتِرامَ".

وأَردَفَ مُحمَّد خليفة وَهُوَ يَربِتُ عَلى كَتِفِ حَمَد:

"مِن كَثرةِ تَردُّدِها عَلى نيروبي وتَعامُلِها مَعَ مُرشِدين مُسلِمين يَتَكلَّمون العَرَبيةَ أَصبَحت تَعرِفُ العَرَبيّةَ بِدَرَجَةٍ مَعقولَةٍ ، ولَهَا غُرفَةٌ تَنزِلُ فيها كُلَّ عَامٍ ولا تُغيّرُها ، هي الغُرفَةُ 505 ، وبِالتالي هِيَ مِن جيرانِك.

وتَوقَّف مُحمَّد لِلَحظَةٍ ثُمَ قَال بِنَبرةٍ لا تَخلو مِن دُعَابةٍ:

"والإحسانُ إلى الجارِ أَمرٌ نَبيل .. .. أَلَستَ مَعي في ذَلك ؟!".

عَزَّزَ مُحمَّد خليفة كَلامَهُ بِتغييرِ نَبرَتِهِ والنَظَرِ في عَيني حَمَد بِشَكلٍ مُباشِرٍ:

13

"صَدِّقني يَا حَمَد أنَا جَادٌ تماماً ، فَالفَوجُ الذي جِئتَ فيهِ كُلُّه يُقيمُ في الطَابِقِ نَفسِهِ ، والتَعرُّفِ على هَذه السيّدَةِ تجرِبَةٌ قَد لا تَنساها طوالَ حَياتِك ، بَل رُبّما تَكونُ أفضَلَ اعتذارٍ يَصدُرُ مِنكَ عَن الأخطاءِ التي حَدَثَت كُلِّها".

عَادَ حَمَد إلى رِفَاقِهِ وهُم عَددٌ صَغيرٌ مِن الطُلابِ الخَليجيين بِكُليّةِ لَندن لِلأعمالِ ، وهي كَما يَبدو مِن اسمِها ومَكانِها واحِدةٌ مِن أَرقى المُؤسساتِ التعليميةِ المُتَخَصِّصَةِ في العَالمِ.

وَوَفدُها شَبابٌ مُتَفوِّقون مِن أُسَرٍ غَنيّةٍ .. .. طَموحون .. مُتَحَمّسون .. قليلو الخبرة .. في مُقتَبَلِ العُمرِ.

جَلَسَ حَمَد على مِقعَدٍ أَفريقيّ أَنيقٍ ذي لَونٍ فَاحِمٍ ، وغَرَقَ في شُرودٍ عَميقٍ قَبلَ أَن يَلوحَ مِن المَمرِ الجَانبيّ المُطلِّ على بَاحِةِ الاستِقبالِ الوَاسِعَةِ عَامِلٌ كِينيٌّ في العِقدِ الرَّابِعِ مِن العُمر ، دائِم الابتِسامِ والإيمَاءِ بِرَأسِهِ ، خَفيضِ الصَّوتِ لا تَكادُ تَسمَعُ وَقعَ أَقدَامِهِ ، يَرتَدي زِيّاً بُنيّاً يَتَنَاغَمُ مَعَ الأَلوانِ التي تَشيعُ في كُلِّ زَوايا المَكانِ...فَضلاً عَن وُجُوهِ البَشَرِ.

14

أَخرَجَهُ العَامِلُ مِن شُرودِهِ عِندَما مَدَّ يَدَهُ بِرشَاقَةٍ بِكُوبٍ مِن شَرابٍ أَفريقيٍّ بَارِدٍ لِلتَرحيبِ ، ثُمَّ أَشارَ العَامِلُ بِيَدِهِ داعياً الفَوجَ لِلتوجُهِ بَعدَ تَناوُلِ الشرابِ إلى مُوظَّفِ الاستِقبالِ لاستِلامِ مَفاتيحِ الغُرَفِ. تَسَلَّمَ حَمَد مِفتَاحَهُ وحَملَقَ في الرقمِ دونَ أن يُعلِّقَ: 506!.

تحَرَّكَ الفَوجُ وَهُم يَتبادَلون التَعليقاتِ وحَمَد مُستَلَبٌ في هَذه المُصادَفةِ التي سَتَجعَلُهُ لِلمرَّةِ الأُولى يخرُجُ مِن عَالَمِ الأَرقامِ والنظَرياتِ الاقتِصاديّةِ والرُسومِ البَيانيّةِ لِيَدخُلَ عَالَمَاً جَديداً حتَّى على العُلَماءِ: علم نفس الحيوان.

نَظَرَ حَمَد إلى نَفسِهِ في مِرآةِ مِصعَدِ الفُندُقِ المَصقولةِ لِلحَظاتٍ قَطَعها صَوتُ جَرسِ المِصعَدِ يُنبّهُ لِلوصولِ إلى الطابقِ الخَامِسِ ، وتَمتَمَ حَمَد بِصوَتٍ نِصفِ مَسموعٍ ، وَهُوَ يَهمُّ بِالخُروجِ:

"ولِمَ لا؟!"

3

كَان عَناءُ السَّفَرِ والانفِعالِ الذي تَسَبَّبَت فيهِ أَخطاءُ دَليلِ الرِحلةِ كَافيةً لأن تُوفِّرَ لِحَمَد ورِفاقِهِ نَوماً عَميقاً وهادِئاً ، ومَعَ أَوَّلِ خُيُوطِ الصَّباحِ بَدَأَت الهَواتِفُ تَدُّقُ في الغُرَفِ لِتُوقِظَهُم. وبِالتتابُع بِحَسبِ أَرقامِ الغُرَفِ صَحَا الجَميعُ.

فَعَامِلُ الاستِقبالِ في الفُندُقِ تَلَقَّى تَعليماتٍ مُشدَّدَةٍ مِن مُحَمَّد خليفة بِضَرورةِ إِيقاظِهِم في السَّادِسةِ صَبَاحًا ، على أَمَلِ تَعويضِ الوَقتِ الذي ضَاعَ في اليَومِ السَّابِقِ.

فَتَحَ حَمَد نَافِذةَ غُرفَتَهِ المُطِلَّةَ على غِطاءٍ نَباتيٍّ يَبدو كَما لو كَانَ بِساطاً أَخضَرَ بِلا نِهايةٍ. انفَتَحَت شَهيّةُ حَمَد لِيستَمتِعَ بِالهواءِ النَقيِّ المُحَمَّلِ برُطوبَةٍ مُنعِشَةٍ وروائِحَ هامِسةٍ مُختلطةٍ.

مَلأَ حَمَد صَدرَهُ مِن الهَواءِ لِلحَظَاتٍ ثُمَّ دَخَلَ الحَمَّامَ فَتَوضَأَ وبَدَأَ رحلَةَ البَحثِ عَن عَلامَةِ اتِّجاهِ القِبلِةِ ، ولَمَّا أعياهُ البَحثُ اتَّصلَ بِغُرفَةِ مُحمَّد خليفة.

كَانَ رَدُّ فِعلِ مُحمَّد خليفة طَريفاً إذ بَادَرَهُ بَعدَ تَحيّةِ الصَّبَاحِ بِالقَولِ:

"أعرِفُ.. ..تُريدُ أَن تَعرِفَ اتِّجاهَ القِبلةِ".

وضَحِكَ حَمَد وقَالَ:

"بِالضَبطِ ، كَيفَ عَرَفتَ ؟"

فَقَالَ مُحمَّد:

"بِالأمسِ تَحرَّجتَ مِن الاتِصالِ بي في وَقتٍ مُتَأخِّرٍ وَصَليتَ دُونَ أن تَتحرَّى اتِّجاهَ القِبلَةِ لأنَ هَذا جَائِزٌ شَرعًا ، والآنَ تُريدُ أن تَتّجِهَ إلى القِبلَةِ ؟"

وضَحِكَ حَمَد وهَنَّأَ مُحَدِّثَهُ على فَراسَتِهِ فَقالَ مُحمَّد:

"قَليلٌ مِن الفِراسةِ وكَثيرٌ مِن الخِبرَةِ .. .. عَلى الكومود المُجاوِر لِلسَّريرِ تَحتَ الهاتِفِ تقريباً تُوجَدُ وَرَقَةٌ مُثَبتةٌ تَحتَ

الزجاجِ عليها سَهمٌ يُشيرٌ لاتِّجاهِ القِبلَةِ ، وقد نَبَّهتُهُم مرّاتٍ إلى ضَرورةِ وَضعِهِ في مَكانٍ أكثَرَ وُضوحًا".

واستَطرَدَ مُحمَّد خليفة:

"عُمومًا نَحنُ في انتِظارِكَ في المَطعَمِ بَعدَ أن تُؤديَّ الصلاةَ ، لأنَّ الإفطارَ هُنا: "بوفيه مَفتوحٌ" وفي مَكانٍ وَاحِدٍ هو المَطعَمُ الرَّئيسُ في الدَّورِ الأرضي ، عَلى يَسارِ المِصعَدِ ، وبإذنِ اللهِ بَعدَ الإفطارِ مُباشَرَةً سَنَنطَلِقُ فَورًا".

أَغلَقَ حَمَد الهَاتِفَ وَهوَ يَشعُرُ بِدفءٍ إنسانيٍّ في عَلاقَتِهِ التي بَدَأَت قَبلَ يَومٍ وَاحِدٍ مَعَ هذا الدَّليلِ السيّاحيّ الذي تُشيرُ حُنكَتُهُ إلى ثَقَافَةٍ واسِعَةٍ وخِبرَةٍ أوسَع.

انفَتَحَ بَابُ المِصعَدِ في الدَّورِ الأرضيّ وخَرَجَ حَمَد مُتمَهِّلاً وَهوَ يَتَفرّسُ وُجوهَ زُمَلائِهِ المُتَحَلِّقين حَولَ مُحمَّد خليفة:

خالِدُ الرَّحبي العُمانيُّ الهادِئُ الوَدودُ ، وتُركي الحَامِد المُتَدَيِّنُ الوَقورُ الصَّامِتُ ، وبَدرُ الصَّانِع الكُويتيُّ الطَّيبُ الصَّاخِبُ ، وقَالَ لِنَفسِهِ:

18

"صُحبَةٌ رائِعةٌ لَكِنَ الغَريبَ أنَّ هذا الكَهلَ الكِينيَّ أَقربَ إلى نَفسي ويَبدو أَنَّهُ سَيكونُ رَفيقيَ الأقرَب".

دَخَلَ الفَوجُ المَطعَمَ وحَمَلَ كُلٌّ مِنهُم طَبَقَهُ وتَوجَّه إلى البوفيه المَليءِ بِكُلِّ مَا لَذَّ وطَابَ ، وتَحرَّكَ الصَّفُ بِبُطءٍ أَمامَ المَأكولاتِ والمَشروباتِ التي رُصَّت بِعنايةٍ ، لَكِنَّ هَذهِ الرتابَةَ مَنَحَت حَمَد الفُرصَةَ لِتَأمُّلِ المَطعَمِ ، وكَانَت المَرَّةَ الأُولى التي يَقتَنِعُ فيها بُوجودِ **"أَنَاقةٍ أفريقيّةٍ"**.

فالمَوادُّ المُستَخدَمةُ يَغلُبُ عليها كَونُها مَواد طَبيعيّة مِن البيئةِ نَفسِها ، وليَست مِن خاماتٍ صِناعيّةِ المَصدَرِ شَأنَ مُعظَمِ الديكورات ذاتِ المَذاقِ الغَربيّ الحَديثِ. أمَّا الأَلوانُ فَمُعظَمُها فَاحِمٌ .. داكِنٌ وَقورٌ .. ويَقلُّ في المَكانِ كُلِّهِ وُجودُ الأَشياءِ اللامِعةِ والأَلوانِ الزَّاهيةِ.

وبَينما عَيناهُ تَمسحانِ المَكانَ لَمَحَ السيّدةَ ماري تَجلَسُ على طَاوِلَةٍ وَاحِدةٍ مَعَ مُحمَّد خليفة. ولِلمرَّةِ الأُولى شَعُرَ بأنَّ الأمريكيةَ الشَّقراءَ والكِينيَّ ذا المَلامِحِ السمراءِ الداكِنةِ

مُتشابِهان في شيءٍ ما ، تَشابُهٌ أعمَقُ مِن تَشابُهِ المَلامِحِ ومِن لَونِ البَشرةِ ، إنَّهُ تَشابُهٌ في "**المَلامِحِ الإنسانيّةِ**".

أُعجِبَ حَمَد بِهذا التعبيرِ فَهنَّأ نَفسَهُ بِصوتٍ خَفيضٍ:

"**الله .. الله .. يا عَم حَمَد إنَّكَ تَنحتُ مُصطَلَحاتٍ جَديدةٍ في العُلومِ الإنسانيّةِ ، إنَّهُ تَأثيرُ لِقاءٍ وَاحِدٍ ، فَماذا سَيَحدُثُ لَو تَعدَّدَت اللِقاءات ؟ .. رُبَّما تَرَكتَ دِراسَةَ الاقتِصادِ في كُليّةِ لندن وَذهَبتَ لِدِراسَةِ سيكولوجيا الذُبابِ ؟!.**"

حَمَلَ حَمَد طَبَقَهُ واتَّجَهَ مُباشَرةً إلى طَاوِلَتِهما .. .. فَوقتُ الرحلَةِ أقصَر مِن أَن يُضيّعَهُ في التسويفِ والتَردُّد. وَهُوَ ، رَغمَ هذا الخَاطِرِ السَّاخِرِ ، يَشعُرُ في أَعماقِ نَفسِهِ أَنَّهُ بِالفِعلِ أَصبَحَ راغِبًا في التَّعرُفِ عَلى هَذهِ السَيّدةِ.

ولَقَد كَانَ حَمَد بِكُلِّ تَأكيدٍ راغِبًا في المَزيدِ مِن التَّعرُفِ عَلى هَذا الأَفريقيّ المُدهِشِ. وإذا كَانَ المَثَلُ الرُّومانيُّ يَقولُ: "**كُلُّ الطُرُقِ تُؤدي إلى روما**" ، فإنَّ كُلَّ الطُرُقِ في حَالَةِ حَمَد كَانَت تُؤدي إلى طَاوِلَتِهما.

اقتَرَبَ حَمَد مِن الطَّاوِلَةِ وحيَّاهُما فَأشارَ مُحمَّد خليفة لَهُ بِالجُلوسِ بَينما رَحَّبَت هي بِإيماءَةٍ ، وقبَلَ أن يَبدأَ مُحمَّد في تَقديمِهِ قَالَ حَمَد:

"أولاً أنا أَعتذِرُ عَن انفِعالي بِالأمسِ ، لقَد كَانَ بِسَببِ إرهاقِ السَّفرِ ومُشكِلاتِ التَّنظيمِ في المُقامِ الأول ، و....".

وابتَسَمَت السَيّدةُ ماري بِمودَّةٍ حَقيقيّةٍ وقَالَت:

"مَن يَدري ؟ رُبَّما كَانَ هَذا المَوقِفُ الذي تَعتَذرُ عَنهُ ضَريبةً لا مَفَرَّ مِن دَفعِها لِنَتَعارفَ ، وأنا مُتَفائِلَةٌ أنَّك شَخصٌ تَستحِقُ مَعرِفَتُكَ هذه الضَريبةَ الزَّهيدَةَ".

ونَزَلَت كَلِماتُ ماري عَلى حَمَد كَالسِّحرِ ، فَهذِهِ بَلاغَةٌ لهَا مَذاقٌ عَربيٌّ ، وأَردَفَت السَيّدةُ وقَد قَرَأَت مَلامِحَ حَمَد:

"لا يُوجَدُ لُغزٌ في المَوضوعِ فأنا – بَعيداً عَن التَخصُّصِ العِلمي – قَارِئَةٌ جَيدةٌ لِلثَّقافَةِ العَرَبيّةِ ، ومُعظَمُ الأدِلةِ الذينَ رافَقوني هُنا كَانوا مُسلِمين وزادوني عِلماً بِها".

21

قَطَعَ صَخَبٌ مُفاجِئٌ حَديثَ السَيّدةِ ماري ، فَقَد أَصبَحَ التحرُّكُ ضَروريًا ، وبَدَّدَ صَوتُ السَّائِقِ ومُساعِدي الدَّليلِ هُدوءَ المَكانِ.

بَدَأَ التحرُّكُ نَحوَ السَيَّاراتِ وكَانَت المُفاجَأةُ الأُولى أنَّ السَيّدةَ ماري تَتحرَّكُ مَعَ الفَوجِ ، فَقَد دَعَاها مُحمَّد خليفة لمُرافَقَتِهم لأَنَّها هيَ أيضاً كَانَت في الطريقِ إلى الغَابَةِ.

4

مَوكِبٌ صَغيرٌ مِن ثَلاثٍ مِن سيّاراتِ الدَّفعِ الرُباعيّ الفَخمَةِ تَحرَّكَ مِن أمامِ الفُندُقِ حامِلاً الفَوجَ الخَليجيَّ والدَّليلَ والسَيّدةَ ماري ، وَوِجهَتُهُ مَحميّةُ ماساي مارا.

إنَّها تَستأثِرُ بِبعضٍ مِن أجَملِ المَناظِرِ الطَبيعيّةِ وأكثَرِها سِحراً في قارّةِ إفريقيا. والمَوكِبُ تَتَقدَمُهُ سيّارةٌ أَصغَر بِها ثَلاثةُ حُرَّاسٍ مُسلَّحين ، وفي مُؤخِّرَتِهِ سيّارةٌ مُحمَّلَةٌ بالاِحتياجاتِ الأَساسيّةِ وبَعضِ الكَماليّاتِ.

ضَغَطَ السَّائِقُ زِرَّ إدارةِ مُشَغِّلِ الاسطِواناتِ المَضغوطَةِ وبَدَأَ صَوتُ مُرشِدٌ كِينيٌّ في التَّعريفِ بِوجهَةِ الرحلَةِ بَعرَبيّةٍ فَصيحَةٍ ، لَكِن بِلَكنةٍ أفريقيّةٍ.

"مَحميّةُ ماساي مارا في جَنوبِ غَربِ كينيا ، على مِساحةِ تسعمائةِ ميلٍ مُربَّعٍ مِن الأرضِ العُشبيّةِ ، أي حوالي 1672 كيلومترًا مُربَّعًا قُربَ الحُدود مَعَ تنزانيا ، وبِالتَّحديدِ في مَناطِقِ السافانا الإستوائيّةِ المُمتَّدَةِ مِن مَحميّةِ "سيرنجيتي" في تنزانيا .. وتُقدَّرُ مِساحَتُها بـ 14600 كيلومتراً مُرَبَّعًا.. وفيها أَكثَرُ تَنَوُّعٍ لِحياةِ البراري في العَالَمِ".

"تَبدأُ الرحلَةُ الفِعليّةُ في اتِّجاهِ نَهرِ مارا بِالقُربِ مِن مَوطِنِ قَبيلَةِ الماساي: الشعبِ المَحلي الذي يَعيشُ هُنا مُنذُ

قُرونٍ مِن الزَّمنِ ، وقَد سُمِّيّت المَحميّةُ بِاسمِه. ويُصنَّفُ ذُكورُ الماساي إلى: الأولادِ ، والمُحاربين ، والمُسنّين".

"وذُكورُ الماساي يَختَتِنون .. ويَبقى الطِّفلُ مَعَ وَالديهِ حتَّى سِن الرَّابِعَةَ عَشرَة.. ثُمَّ يَكونُ عَليهِ أن يُغادِرَ البيت ويَعيشَ في الغابةِ لِمُدَّة أربَعِ سنوات يَعتَمِدُ فيها عَلى نَفسِهِ ، بَعدَها يَتمُّ خِتانُهُ في احتِفالٍ كَبيرٍ ، يُصبِحُ بَعدَهُ مُقاتِلاً أَصغَر ، ثُمَّ يتطوَّرُ إلى مُقاتِلٍ كَامِلٍ ، أو "موران"".

"ويَدهِنُ "الموران" أجسادَهُم بِدُهنِ الحَيواناتِ وشَحمِها ، ويَتزيَّنون بِقُوشٍ مِن الطِّينِ يَرسِمونَها عَلى سِيقانِهم ، كَما يَضَعون الطِّينَ الأَحمَرَ عَلى رُؤوسِهِم".

ووَضَعَ بَدرُ الصَّانِع يَدَهُ عَلى كَتِفِ حَمَد لِيُنَبِّهَه إلى غَرابَةِ المَعلوماتِ:

"إسمَع يا حَمَدى .. إنَّهُم الهيبيز عَلى الطَّريقةِ الكينية".

وأَطلَقَ ضِحكَةً عاليةً ، فالتَفتَ الدَّليلُ مُحمَّد خليفة الذي كَانَ جَالِساً في المِقعَدِ الأَماميّ وقَالَ:

"بالمُناسَبةِ .. غَربيونَ كَثيرونَ يَصِفونَ الماساي بأنَّهم "كاوبوي أفريقيا" بِسبَبِ مَهارتِهِم وشُهرَتِهِم كَرُعاةِ بَقرٍ".

ولَفتَ هَذا الحِوارُ الانتِباهَ إلى طَرافَةِ التعليقِ فَأصبَحوا جَميعاً أَكثَرَ انتِباهًا لَهُ.

"ويَمرُّ فَتى قَبائِلِ الماساي "الموران" خِلالَ حَياتِهِ بِمراحلِ تَميُّزِ القَبائِلِ الأفريقيّةِ المُوغِلَةِ في القِدَمِ .. فَعِندَما يَجتازُ مَرحلَةً عُمريّةً في طَريقِهِ لأُخرى يَجبُ عَليهِ أَن يُبدي مَظاهِرَ الحُزنِ كَالبُكاءِ والعَويلِ عَلى ما اجتَازُهُ .. ثُمَّ يَعرِضُ "الموران" نَفسَهُ كَفتىً مُحارِبٍ"..

"وبَعدَ هَذا التَحوُّلِ يُستَشارُ مَجلِسُ القَبيلةِ "اللايبون" ويُمنَحُ الفَتى عَددًا صَغيرًا مِن الأَبقارِ وسِلاحًا يَبدَأُ بِها حَياتَهُ .. ويُغير بالتَّالي لِباسَهُ ولَونَ جَسَدِهِ .. ويُصبِحُ مَسؤولاً بِالكامِلِ عَن تِلكَ الثَروةِ الصَّغيرةِ".

وخَرَجَ خَالِدُ الرحبيّ عَن تَحَفُّظِهِ وقَالَ:

"أَبقارٌ وسِلاحٌ لِيَبدَأَ بِهِما حَياتَهُ؟ ولِمَاذا لا يَمنَحونَهُ حَافِظَةَ أَسهُمٍ في بُورصَةِ وول ستريت أَفضَل"؟

وتَعالَت الضِحكَاتُ .. .. ثُمَّ تَوالَت التَعليقاتُ ، فَقالَ بَدرُ الصَانِع:

"نَعَم .. وتَخيَّلوا مَعي لَو دَخَلَ البروفسير آرثر ريدج بِأَناقَتِهِ البريطانيّةِ المَشهورَةِ ونَظَّارَتِهِ السَّميكَةِ قَاعةَ المُحَاضراتِ في كُليّةِ لندن وَوَجَدَ أَمَامَهُ عَدداً مِن مُحارِبي الماساي بِحِرابِهِم وأَجسادِهِم المُلوَّنَةِ .. يَجلِسونَ عَلى مَقاعِدِ الطلابِ".

وتَلَقَّفَ حَمَد كُرةَ التَعليقاتِ التي أَصبَحتَ تَنتَقِلُ بَينَ أفواهِ الشَّبابِ الخَليجيّ وقَالَ:

"عِندئِذٍ سَتَتحوَّلُ ساحةُ انتِظارِ السيّاراتِ إلى حَظيرةِ أَبقارٍ .. وستَتحوَّلُ الخَزائِنُ المَعدِنيّةُ المُخَصَّصَةُ لأغراضِ الطُّلابِ إلى جُعبَةٍ مَفتوحَةٍ تُطِلُّ مِنها السِهامُ وتَتَدلَّى مِنها الحُليُّ الأفريقيّةُ .. وسَيتحوَّل طُلابُ كُليّةِ لندن إلى شُربِ دَمِ البَقَرِ".

وعَادَ الجَميع لمُتَابَعةِ صَوتِ مُشغِّلِ الاسطواناتِ الذي أَصبَحَ سَبَبًا في إطلاقِ التَعبيراتِ السَّاخِرةِ والنِكاتِ اللاذِعَةِ.

"وقَبلَ أن يَنطَلِقَ الشَّابُ البَالِغُ في البَراري لِلرَّعي يَتَعلَّمُ أسرارَ العِلاجِ الشَّعبيِّ بِالأعشابِ لِيواجِهَ بِهِ حَياةَ المَراعي الأفريقيّة القاسيّةِ"..

"وقَد اكتَسَب الماساي سُمعَةَ أنَّهُم الأفضَلُ بَينَ القَبائِلِ الأفريقيّةِ فيما يَتَعلَّقُ بِطِبِ الأعشابِ .. ويَتَعلَّمُ المُحارِبُ أيضاً دُروسًا مِن الحِكمَةِ عَن طَريقِ مَجلِسِ حُكمَاءٍ قَبَليٍّ لِيُواجِهَ بِها اختِباراتِ الحياةِ وتَقلُّباتِها".

"وتَتِّم مَراسِمُ الختانِ لِلذُكورِ بَينَ سِنِ الثَّامِنةِ عَشرَةِ والعِشرين ، حَيثُ يَتمُّ جَمعُ عَددٍ مِن الأَولادِ معًا ، ويَتِمُّ خِتانُهُم جَميعاً ثُمَّ يَخرجُونَ إلى الأَدغالِ مُرتَدينَ مَلابِسَ سَوداءَ .. وهُمَّ يُلَطِّخونَ أوجُهَهُم بِأصباغٍ بَيضاءَ لِتعريفِ أفرادِ القَبيلَةِ بِأنَّهم انتَقَلوا مِن فِئَةِ الأَولادِ لِفِئَةِ المُحارِبين".

ويُمكِنُ تَمييزُ فِئَةِ المُحارِبين بِاللِبسِ الأحمَرِ والشُعورِ المُستَرسلةِ الطَّويلَةِ .. وهُم يُتقِنونَ استِخدامَ الرِّماحِ الطَّويلةِ ، والأَسهُمِ والأَسلِحةِ الحَجَريّةِ .. .. وهُم لا يَهابونَ المَوتَ".

ونـجَحَ صَـوتُ الـمُرشِدُ فـي تَهـوينِ الـمَسافَةِ علـى السَّـائحين الـذين لَـم يَعتـادوا رحـلاتِ السَّـافاري .. فانطَلَقَـت أبَصارُهُم تَقطُعُ البَراري عَلى جَانبيّ الطَّريقِ فيما صَوتُ الـمُرشِدِ السيّاحيّ الرَّخيمِ بِرَنِينِهِ المَعدَنيّ يَصرِفُ أذهَانَهُم عَن النظَرِ في السَّاعَةِ والسؤالِ عمَّا بَقي مِن الوَقتِ.

..وجَاءَ صَوتُ المُرشِدِ نَاعِماً وَوَاضِحًا:

"ويُعـرَفُ عَـن الـماساي أنَّـهُم مُبـدِعون فـي زَخرَفـةِ أجسَادِهِم السَّمراء الفارِعةِ بألوانٍ ثَابِتةٍ مَوجودَةٍ في مُعتَقَدَاتِهِم .. وهيَ: الأبيَضُ والأحَمَرُ والأخَضَرُ والأزرَقُ والبُرتُقاليُّ الطِينيّ.. حَيثُ يَحظى كُلُّ فَردٍ بِألوانٍ حَسبِ عُمرِهِ مِن مَرحَلَةٍ لأُخرى ، وأيَضاً حَسبَ مَرتَبَتِهِ الاجتماعيّةِ ، وبِناءً على عَددِ ما يَملِكُهُ مِن رُؤوسِ الأبقارِ".

"ونِساءُ الماساي يَرتدينَ حليّاً مَصنوعَةً مِن الخَرَزِ عَلى شَكلِ حَلقاتٍ بَيضاء تُوضَعُ عَلى الرَّقَبَةِ ، كَما أنَّـهُنّ حَليقاتِ الرؤوسِ حافياتِ الأقدَامِ".

"ويَعيشُ أَفرادُ قَبيلَةُ الماساي عَلى تَربيةِ الأبقارِ التي يَعتَزونَ بِها أَكثَرَ مِن أَولادِهِم. وتَتَحَدَّدُ مَكَانَةُ الفَردُ عِندَهُم بِعَدَدِ الأبقارِ التي يَملِكُها. وهُم يَعتَقدون أنَّ جَميعَ الأبقارِ في العَالَم خَلَقَها اللهُ ووَهَبَها للماساي. فإذا وُجِدَت بَقَرَةٌ عِندَ غَيرِهِم في أيّ مَكانٍ في العَالَمِ فَمَعنى هَذا أَنَّهُ سَرَقَها".

"وعِندَما يَحينُ أَجَلُ رَجُلِ الماساي يُلَّفُ في جِلدِ بَقَرَةٍ قَديمٍ يُحَضَّرُ لِهذا الغَرَضِ ويَتِمُّ ذَبْحُ شاةٍ يُمسَحُ شَحمُها عَلى الجُثَّة.. لاعتِقادِهِم بِأنَّ ذَلِكَ يَحمي رُوحَهَ .. حتى لا تَهيمَ فَتُحارِبَ مَعَ ضواري الغَابةِ .. وعِندَئِذٍ يُدفَنُ في ظِلِّ شَجَرَةٍ بَحيثُ يَكونُ عَلى قَبرِهِ هَرَمٌ مِن الحِجارةِ يُحيّيهِ كُلّ مَن يَمُرُّ بِقُربِه".

وصَدَمَت العَباراتُ شُعُورَ تُركي الحَامِد فانتَبَه بِكُلِّ حَواسِّهِ ثُمَّ قَالَ:

"لا حَولَ ولا قُوةَ إلا بِاللهِ .. الحَمدُ للهِ الذي أَنعمَ عَلينا بِالإسلامِ وكَفَى بِها نِعمَةً".

وأَوَلُ عَجائِبِ مَحميّةِ ماساي مارا نَوعٌ مِن الحَميرِ هُوَ "الزرد" ويَتَغذَّى عَلى أَكثَرِ مِن خَمسينَ نَوعاً مِن العُشبِ ، وبِالتَّالي يُصبِحُ قَادِراً عَلى التَحرُّكِ في مِساحاتٍ كَبيرةٍ مِن المَحميّةِ مُقَارنَةً بِالدوابِ الأُخرى. وبَعضُ قُطعانِهِ يُعَدُّ بِالآلافِ ، وهَذا يُساعِدُها عَلى حِمايةِ نَفسِها مِن الوُحُوشِ.

في الطَّريقِ إِلى نَهرِ مارا ، تُفسِحُ الأَراضي العُشبيّةُ العَريضةُ الطَّريقَ بِبُطءٍ للأَشجارِ والأَدغالِ الخَفيفةِ.

وتَبدَأُ اللوحَةُ بِالاكتِمالِ: فِيَلَةٌ تَسيرُ بِتَثَاقُلٍ بِسُرعَةٍ تَبلُغُ حَوالي خَمسَةً وعِشرينَ ميلاً في السَّاعَةِ ، ثُمَّ الزَرَافَةُ البُرجيّةُ أَطوَلُ حَيوانٍ عَلى وَجهِ الأَرضِ ، بِارتفاعِ أَكثَرَ مِن خَمسةَ عَشَرَ قَدَمًا ، ثُمَّ أَفراسُ النَّهرِ التي يَزِنُ الوَاحِدُ مِنها طِناً أو أَكثَرَ.

ورَغمَ قَسوةِ مناخِ كِينيا الإستوائيّ الرطبِ فإنَّ الشواطئَ الرمليةَ البَيضاءَ النَّقيّةَ وأَشجارَ المَانجروف والحَواجِزَ والشعابَ المرجانيّةَ المُلوَّنَةَ والأَسمَاكَ المُلوَّنَةَ ، تُهوِّنُ مُعاناةِ الزائِرين.

5

أَطلَقَ حَمَد لِعَينيهِ العَنانِ مِن نَافِذةِ السيّارةِ ومَلأهُما مِن المَنَاظِرِ التي كَانَت أَجمَل بِكَثيرٍ مِمَّا تَخيَّل ، فَالأُفُقُ يَبدو مُختلِفًا بِشَكلٍ كَبيرٍ عَنهُ في لندن عَاصِمةِ الضبابِ ، إنّهُ يُشبِهُ صَفاءَ أُفُقِ الصَّحراءِ في بَاديةِ الخليجِ .. والسَّماءُ أَكثَرُ زُرقَةً وأَكثَرُ مَهابَةً.

التَفَتَ حَمَد إلى السيّدةِ ماري الجَالِسةِ بِجوارهِ فَوجَدَها تَنظُرُ بِالاستِغراقِ نَفسِهِ .. وكَأَنَّها ترى المَكانَ لِلمرَّةِ الأُولى ، فَقالَ لهَا بِتَلَطُّفٍ:

"كُنتُ أظُنُّ أنَّكِ ستَكونينَ أَقَلَّ استِمتاعاً لِكَثرَةِ زِياراتِكِ لِلمكانِ ، وكَما أَفهَمُ فأَنتِ بُحكمِ عَمَلِكِ تَقضينَ وَقتاً طَويلاً مَعَ الحَيواناتِ".

أَنـهَت السـيّدةِ مـاري إطلالَتَهـا الطَّويلَـةَ مِـن النَّافـذة وقَالَت:

"أتعرِفُ يا سَيّد حَمَد .. إن سِحرَ الذِكرى مِن الأَشياءِ الغَامِضةِ في الدراساتِ النَفسيّةِ ، فَنَحنُ عِندَما نَزورُ مَكاناً ما سَبَق أن زُرناهُ قَبلاً قَد نَفقِدُ بَكَارَةَ الدَّهشَةِ وجِدّةِ الاكتِشافِ .. لَكِن استِعادةَ ذِكرياتِنا فِيهِ لَذَّةٌ أُخرى مُختلِفةٌ ، نَستطيعُ أن نَتذوَّقَها لَكِنَّنا لا نَستطيعُ بِدقّةٍ أن نُبَرّرَها".

ابتَسَم حَمَد ابتِسامَةَ مُجَامَلَةً وتَمنَّى أن يَسمَعَ رَدّاً أَقلَّ إغراقاً في التَنظيرِ ، فَرَدَّت ماري على ابتِسامَتِهِ قَائِلَةً:

"ألا تُلاحِظُ في بِلادِكُم مَثَلاً قَدرَ حُبِ كَثيرٍ مِن النَّاسِ لِرحلاتِهِم في الباديةِ ، رَغمَ مَا طَرَأَ عَلى دُوَلِ الخَليجِ كُلِّها مِن نَهضَةٍ عُمرانيّةٍ ضَخمَةٍ خَلقَت مُدُناً كَبيرةً عَلى الطرازِ الحَديثِ ، وعُمرانـاً لا يَقـلُّ بَهـاءً عَـن الكَثيـرِ مِـن الـمُدُنِ الأوروبيّـةِ والأَمريكيةِ".

ووَضَـعَ حَمَـد بِهَـذِهِ العِبـارةِ يَـدَهُ عَلـىَ مَكمَـنِ الـمُشابَهَةِ الذي تَقصِدُهُ ماري ، فَقَالَ مُتعَجِّبًا:

"نَعَم.. وكَثيراً ما كُنتُ أَتَوَقُّفُ لِلتفكيرِ في مَعنى ودَلالةِ الرَّغبَةِ المُلِحةِ لدى جِيلِ الآباءِ في الخُروج إلى البادِيةِ في رحلاتٍ قَاسيةٍ وشَاقَّة .. وهيَ رحلاتٌ لا يُحبّهُا كَثيرٌ مِن الشَّبابِ ويُفضّلون بَدَلاً مِنها رحلاتِ اصطيافٍ خَارِجَ البِلادِ".

وأَومَأت ماري بِرأَسِها مُؤَكِّدَةً:

"هَذا بِالضَّبطِ مَا أَعنيهِ ، فَالإنسانُ فِيهِ شَيءٌ يَجعَلُهُ يُحبُ استِعادةَ ماضِيهِ ، وهؤلاءِ الشبابِ وُلِدوا في المُدن ولَم يَعيشوا في البَادِيةِ ، وبِالتَّالي لا تُمَثِّل البَادِيةُ بِالنسبَةِ لِكَثيرٍ مِنهُم ذِكرى يُحبّونَ استِعادَتَها .. .. ويَوماً ما تُصبِحُ هَذهِ الرحلة بِالنِسبَةِ لَكَ ذِكرى تُحبُّ استِعادَتَها .. فَالإنسانُ فِيهِ جُزءٌ يُحِبُّ اكتِشافَ الجَديدِ ، وفي الإنسانِ أَيضًا جُزءٌ يَحِنُّ إلى استِعادةِ القَديمِ".

وانطَلَقَ حَمَد في نَوبَةِ تَأَمُّلٍ وتَنظيرٍ يُنَافِسُ فِيها ماري فَقَالَ:

"إنَّ مَعنى هَذا أنَّ التَّاريخَ يَتحوَّلُ إلى سِلعةٍ رائِجَةٍ".

وأَومَأت ماري بِالمُوافَقَةِ ، فَأكمَلَ حَمَد:

"وفي هَذهِ الحَالَةِ فإنَّ السَّائِحينَ يَكونونَ كَمَن يَستَعيدُ حِقبَةً مَضَت مِن تَاريخِ البَشَريّةِ وهُم يَتَعرَّفون عَلى حَياةِ القَبائِلِ البِدائيّةِ .. وكَأنَّ هَذهِ المَناطِق الشاسِعَة لا تَعدو بِنَظَرِهِم كَونُها مُتحَفاً إنسانيًّا مَفتوحًا .. إنَّه نَوعٌ مُختَلِفٌ مِن المَحميّاتِ لا تَضمُّ حيواناتٍ بَل تَضُمُّ بَشَرًا في حَالَتِهِم البِدائيّةِ قَبلَ أن تُغَيّرَهُم المَدَنيّةُ".

أَبطَأَ السائِقُ سُرعَتَهُ واتَّجَهَ إلى جَانِبِ الطريقِ فَتَأهَّبَ الركَابُ لِلنُزولِ وتَوقَّفَ حَمَد عَن الكَلامِ.

وتَوقَّفَت السيّارةُ أَمَامَ لَوحَةٍ إرشاديّةٍ مُلوَّنَةٍ تُمَثِّلُ خَريطةً كَبيرةٍ لِلمَحميّةِ وبَدَأَ مُحمَّد خليفة يَشرَحُ:

"ماساي مارا مِن أَكثَرِ مُتَنَزَّهاتِ كِينيا الوَطنية شُهرَةً وجَمَالاً ، وهَذا البَلَدُ يَحتَلُّ المَرتَبَةَ الثَّانيةَ في تَنوُّعِ الحَيواناتِ في إفريقيا. وتَقريباً عَشرةٌ في المائةِ مِن مِساحِةِ كينيا منطقةٌ مَحميّةٌ ، وهيَ أَكبَرُ مِن مِساحِةِ هولندا".

ولاحَظَ مُحمَّد تَشَتُّتَ انتِباهِ سامِعيهِ فَتَوقَّفَ عَن الشَّرحِ وقَالَ:

"والآن يُمكِنُكُم التجوُّلُ لَكِن مع اتِّباعِ التعليماتِ ولِمُدّةِ 4 ساعات .. .. نَلتَقي بَعدَها عِندَ السيارةِ و...." ،

وبَدَأَ يُعَدِّدُ قائِمةَ مَمنوعاتٍ وتَحذيراتٍ فيما الخُطواتُ الحَذِرَةُ تَتفرَّقُ بِبُطءٍ..وكُلٌّ مَشغولٌ بِالتِقاطِ صُورَةٍ ، أو تَأمُّلِ مَشهَدٍ.

وأَصبَحَت السيّاراتُ المُصطفَّةُ عَلامَةَ طَريقِ الرجوعِ.

الفصل الثاني
عِندَمَا تَبكِي الأَفيالُ

1

ارتَدى حَمَد دشدشاته وغُطرَتَهُ وألقى نَظرَةً أَخيرةً على أَنَاقَتِهِ في المِرآةِ المُجاوِرةِ لِبابِ الغُرفَةِ ، وخَرَجَ مُسرِعًا لِيَقَفَ أَمَامَ بَابِ المصعدِ.

لَم يَكُن الوَقتُ يَسمَحُ بِشرودٍ طَوَيلٍ لَكِنَّهُ انتبَهَ إلى أَنَّـهُ ذَاهِبٌ إلى لِقاءٍ اعتَذَرَ بِسَبَبِهِ عَن دَعواتٍ زُملائِهِ جَميعًا ، وانتَبَه أَيضاً إلى أَنَّـهُ أَلغى كُلَّ مَا كَانَ يُخَطِّطُـهُ لِهَذِهِ الرحلَةِ — على الأَقَل حتَّى الآن — في انتِظارِ ما تُسفِرُ عَنهُ هَذِهِ التَجرِبَةُ.

وتَمتَمَ حَمَد:

"سُبحَانَ الله..كَأَنَّـني ذَهَبتُ مِـن قَطَـر إلى بريطانيـا لأَدرُسَ الاقتِصادَ ، لِتُرسِلَني كُليّةُ لندن في رحلة سافاري إلى نيروبي ، لأَلتَقي هُناكَ عَالِمةً أمريكيّةً مُتَخَصِّصَةً في "عِلمِ نَفسِ الحَيوانِ""!!.

دَقَّ الجَرَسُ مُعلِناً وُصُولَ المصعَدِ وانفَتَحَ البَابُ ليَخرُجَ مِنهُ مُحمَّد خليفة مُتَأَنِّقَاً في زيٍّ بَسيطٍ جَميلٍ يَختَلِفُ تَمَامًا عَن مَلابِسِـهِ التي يَرتَـديها فـي رحلَـةِ السـافاري صَبَاحًا ، فَكَمَـا أَنَّ **"لِكُلِّ مَقامٍ مَقالٍ"** ، فإنَّ لِكُلِّ مُنَاسَبَةٍ زِيًّا.

تَصافَحَا وتَبَادَلا عِبَاراتِ الترحيبِ القَصيرةِ وهُما يَتَّجِهانِ إلى بَابِ الغُرفَةِ القَريبِ مِن المصعَدِ ، طَرَقَ مُحمَّد البَابَ بِرِفقٍ وجَاءَ صَوتُ أَقدامِ ماري خَفيضًا.

فَتحَت ماري البَابَ وهيَ تُرَحِّبُ بِالقَولِ والإشارةِ ، ودَخَلَ الضَيفان ، وأَرشَدَتَهُما السيّدةُ الأَنيقَةُ الهَادِئَةُ إلى شُرفَةِ الغُرفَةِ حَيثُ الهَواءُ المُنعِشُ ومَقاعِدُ البامبو ذاتُ الوَسائِدِ المُريحَةِ ، فاتَّخذا مَكَانَهُما في مُواجَهةِ مَنظَرٍ يَجمَعُ بَين الجَمالِ والمَهَابَةِ.

طَرَقَ طارِقُ بَابَ الغُرفَةِ فَعادَتِ ماري لِتَفتَحَ البابَ وكَانَت تَعرِفُ أَنَّه عَامِلُ خِدمَةِ الغُرَفِ. دَخَلَ العَامِلُ يَدفَعُ أَمَامَهُ عَرَبةً خَشبيّةً عَليها الشايُ وبَعضَ قِطَعِ الحَلوى فَوضَعَها في هُدُوءٍ على المِنضَدَةِ الصَّغيرةِ ، وأعطَى أَمرَ الدَّفعِ لِلسيّدةِ ماري لِتُوَقِّعَهُ بِشَكلٍ آليٍّ وَهيَ تُومئ لَهُ شَاكِرةً.

حَمَلَت ماري مِقعَداً ثَالِثًا مِن الغُرفَةِ وأَخَذَت مَكَانَها بَين الضَّيفينِ وبَدَأَت في إعدَادِ الشاي وتَقديمِهِ لَهُما ، ثُمَّ استَقَرَّت عَلى مِقعَدِها ، ورَشَفَت رَشفَةً مِن الفِنجانِ ونَظرَت إلى مَنظرِ نيروبي كَما تَبدو مِن شُرفَةِ الفُندُقِ ، وقَالَت:

"ما رأيُكَ بنيروبي يَا سيّد حَمَد؟"

تَوجَّهَ حَمَد بِنَظَرِهِ مُطِلاً مِن النافِذَةِ وقَالَ:

"مَدينَةٌ جَميلَةٌ..ولَكِنَّني لَم أتَجوَّل فيها بَعدُ".

وهُنا غَلَبَت عَلى مُحمَّد خليفة طَبيعَةَ مِهنَتِهِ كَدَليلٍ سيّاحيٍّ وبَدَأَ يَتَحَدَّثُ عَنها مُشيرًا بِيدِهِ:

"طَبعًا..السيّدةُ ماري زَارَت نيروبي كَثيرًا أمَّا أنتَ فَسأُعَوِّضُكَ عَن الفُرَصِ التي تَرَكتَها لِكَي تَتَنَاوَلَ الشاي مَعَ السيّدةِ ماري"

وَضحِكوا جَميعًا.

واستَطرَدَ مُحمَّد خليفة بِلَهجَةٍ إرشاديّةٍ:

"هَذهِ وَاحِدَةٌ مِن أكبَرِ مُدُنِ أفريقيا ، يَسكُنُها حوالي 3 مَلايين نَسَمَة تَقريبًا. واسمُها بِلُغَةِ المَاساي – إحدَى اللُّغَاتِ المَحَليّةِ – نيروبي ومَعناهُ: "المِياهُ البَارِدَةُ". وَهوَ كَما تَرونَ اسمٌ فيهِ تَأثُّرٌ وَاضِحٌ بِالطَبيعةِ الحَارَّةِ لمُناخِ كِينيا. وَهيَ تُوصَفُ أيَضاً بِالمَدينةِ الخَضراءِ تَحتَ الشَّمسِ".

واستَطرَدَ مُحمَّد كَما لَو كَانَ اسطوانةً مُسجَّلَةً وَهوَ يُشيرُ بَيديهِ مِن النَّافِذَةِ:

"مِساحَةُ نيروبي حَوالي 150 كيلومترًا مُرَبَّعًا..ومُعَدَّلُ ارتِفاعِها عَن سَطحِ البَحرِ 1660 مِتراً ، وهَذا الارتِفاعُ عَن سَطحِ البَحرِ يَخفِضُ دَرَجَةَ الحَرارةِ بِشَكلٍ وَاضِحٍ".

ابتَسَمَ حَمَد وقَالَ:

"هَذا الشرحُ مَجَّانيٌّ طَبعًا يا أُستَاذ خليفة ؟"

وأَومَأَ خليفةُ بِرأسِهِ مُوافِقًا بينما حَمَد يُواصِلُ كَلامَهُ:

"لَكنَّني لاحَظتُ أنَّ المَدينةَ رَغمَ حَجمِها الكَبيرِ فيها مَلامِحٌ ريفيّةٌ وَاضحةٌ".

واستَدرَكَ حَمَد لأَنَّه لَم يَقضِ في نَيروبي إلا سَاعاتٍ قَليلَةٍ:

"طَبعَاً هَذه انطِباعاتٌ عَابِرَةٌ مِن خِلالِ نَافِذةِ السيّارةِ في رِحلَتِها مِن المَطارِ إلى الفُندُقِ".

وجَاءَ رَدُّ خليفة مُؤكِّدًا ما لاحَظَهُ حَمَد:

"نيروبي أُسِّسَت عام 1899 كَقاعِدةِ إمدادٍ لِسِكَّةِ حَديدِ أوغندا التي تَربِطُها بكينيا ، وفي تَغَيُّرٍ سَريعٍ تَحوَّلَت نيروبي في

أَقَلَّ مِن قَرنٍ مِن منطَقةِ مُستَنقَعاتٍ إلى مَدينةٍ حَديثةٍ. ومِن قَريةٍ صَغيرَةٍ إلى مَدينةٍ كَبيرةٍ ثُمَّ أَصبَحَت عَامَ 1907 عَاصِمَةً لِلمُستَعمَراتِ البِريطانيّةِ في أفريقيا".

وتَدخَلَّت السَيّدةُ ماري قَائِلَةً:

"لَقَد رَأيتُ في هَذهِ المَدينةِ ارتِباطاً قَوياً بِماضِيها ، واهتِمَامَاً وَاضِحَاً بِالطبيعةِ كَرَأسِ مَالٍ لا يَقِلُّ أَهَميّةً عَن المَبَاني ذَاتِ الطرازِ الحَديثِ. فأنا مَثَلاً أَحبَبتُ حَديقَةَ نيروبي القَديمَةَ".

وقَاطَعَها مُحمَّد خليفة مُوَضِّحَاً

"مِساحَتُها 113 كيلومتراً مُرَبَّعًا".

وابَتسَمَ حَمَد لَيقَظَةِ مُحمَّد خليفة ، وتَأثُّرِهِ الشَّديدِ بِمهنَتِهِ كَدَليلٍ سيَاحيٍّ ، وإصرارِهِ على القِيامِ بِدَورِ الدليلِ السِياحيّ دائمًا.

واستَطرَدَت ماري وَهيَ تُشيرُ بَيدِهَا مِن الشرفَةِ:

"لَكِنَّني أُحِبُّ أَيضًا مِياهَ نَهرِ تانا والشلالاتِ الأربَعَةَ عَشَر".

تَخلَّى حَمَد عَن تَحفُّظِهِ وَوَجَدَهَا فُرصَةً لِلتَعبيرِ عَن اهتِمامِه بِالسيّدةِ فَقَالَ:

"بِالمُناسَبَةِ ، لَقَد اعتَذَرتُ عَن دَعوَةِ صَديقٍ لِزيارَتِها حتَّى لا تَفوتَني فُرصَةُ تَناوُلِ الشاي مَعَكُما".

2

ذَابَ الجَليدُ وزَالَ التَّحفُّظُ وبَدَأَ الثلاثةُ يَتحَدَّثونَ كَأصدِقاءٍ. ولَم يَكُن حَمَد لِيُفوِّتَ الفُرصَةَ دُونَ أَن يَسألَ عَن قِصَّةِ جون بيري تومسون الذي تَبحَثُ عَنهُ. وغَامَت عَينا ماري

ونَظَرَت إلى البُعدِ الثالِثِ ، واكتَسَى صَوتُها بِنبرَةٍ اختَلَطَ فِيها الحُزنُ بِالحَنينِ وقَالَت:

"جون هُوَ سَببُ وُجُودِنا مَعَاً هُنا ، لَيسَ فَقَط لأنَّني جِئتُ بَحثًا عَنهُ فَالتَقيتُ بِكُما ، بَل لأنَّهُ عَلَّمَني أنَّ مَن يَعمَلُ في مَجالِ عَمَلِنا يَجِبُ أن يُقَدِّرَ أَهَميّةَ الثقَافَةِ .. وأن يُحاوِلَ قَدرَ ما يَستَطيعُ أن يَزيدَ حَصيلَتَهُ مِنها مِن كُلِّ المَنابِعِ .. كُلِّ المَنابِعِ .. كُلِّ المَنابِعِ".

وأَضافَت وَهيَ تَنظُرُ إلى حَمَد:

"هَكذا كَانَ يُكَرِّرُ العِباراتِ عِندَمَا يُريدُ تَأكيدَ فِكرَتِهِ ، وعَندَما أَفعَلُ هَذا دُونَ قَصدٍ أَتذكَّرُهُ".

وابتَسَمَت وغَادَرَت مِقعَدَهَا والضيفانِ صَامِتان.

دَخَلَت ماري الغُرفَةَ وعَادَت حَامِلَةً عُلبَةَ شيكولاتة سويسرية فَاخِرة ومَدَّت يَدَها بِها نَحوَ ضيَفَيها ، فأَخَذَ كُلٌ مِنهُما قِطعَةً ، ثُمَّ وَضَعَتها عَلى المِنضَدةِ وقَالَت:

"رُبَّما احتَجتُما لِشَيءٍ مِن الطاقَةِ حتَّى تَستَطيعا الصبرَ على حِوارٍ رُبَّما يَطولُ".

والتَفَتَت إلى حَمَد وقَالَت مُبتَسِمَةً:

"يَبدو أَن هَذهِ سَتكونُ لَيلَةَ جون بيري تومسون".

ودُونَ أَن تَتَخَلَّى عِن وَقارِ العُلَماءِ قَالَت لِحَمَد:

"قَبلَ أَن أَحكي قِصَّتَهُ أُفَضِّلُ أَن أَبدَأَ بِأَن أَحكيَ لَكَ القِصَّةِ التي كَانت أَكثَرَ تَكرارًا في حَديثِهِ والتي بِسَبَبِها سَاهَمَ بِدَورٍ كَبيرٍ في تَأسيسِ "عِلمِ نَفسِ الحَيوانِ" .. أَتَسمَحُ لي ؟".

فَرَدَّ حَمَد بَأدَبٍ شَديدٍ وَهوَ يَعتَدِلُ في جلسَتِهِ:

"طَبعًا .. طَبعًا ، تَفَضَّلي".

قَالَت ماري:

"يَتنَاولُ عِلمُ النفسِ ظَواهِرَ عَديدةً مِن أكثَرِها غُمُوضًا وإثارَةً "الأحلام"؟ وحتَّى وَقتٍ قَريبٍ كَانَت الظاهِرةُ مَوضوعَ تأويلاتٍ وافتِراضاتٍ إلى أن تَمَّ "القَبضُ عَلى الأَحلامِ!".

وتَوجَّهَت بِوَجهِهَا بِالكَامِلِ نَحوَ ضَيفَيها بالتتَابُعِ:

"هَكذَا قَرَّرَ البروفيسور جون بيري تومسون أن يَصِفَ هَذِه الوَاقِعَةَ".

وتَدَفَّقَ صَوت السَيّدةِ كَنَهرِ تانا الكِينيّ القَويّ:

"وَقَعَ هَذا الحَادِثُ عَامَ 1953 في جَامِعَةِ شيكاغو ، وبِالتَّحديدِ في قِسمِ وَظَائِفِ الأَعضاءِ ، لَكنَّ آثارَهُ كَانَت أَشبَهَ بِزِلزالٍ .. فَلقَد انفَتَحَ البابُ لِلمَرَّةِ الأُولى في التَّاريخِ أَمَامَ إمكانِ الإمساكِ بِالأَحلامِ".

واستَطرَدَت ماري وَهيَ تَرشُفُ الشايَ بِوَقارٍ أرستقراطيّ:

"كَانَ رَئيسُ قِسمِ الفسيولوجيا بِالجَامِعَةِ يَقومُ بِتجارِبَ على الأَطفالِ حَديثي الوِلادَةِ عِندَما لاحَظَ أَنَّ عُيونَ الأَطفَالِ تَتحرَّكُ بِسُرعَةٍ تَحتَ جُفُونِهِم المُغلَقَةَ لأَنَّهُ كَانَ قَد وَضَعَ على هَذِهِ الجُفونِ الصغيرَةِ جِهازَ رَسَّامِ المُخِّ الكَهرَبائيّ".

وبَدَأَت ماري تَستَعينُ بِيَديها كَعَامِلٍ مُسَاعِدٍ في الشَرحِ ، وقَالَت:

"وتَرَافَـق مَـعَ حَرَكَـةِ العُيُـونِ تَغَيُّـرٌ وَاضِـحٌ فـي شَـكلِ المَوجَاتِ التي يَسجِّلُها رَسَّامُ المُخِّ الكَهرَبائيّ. وافتَرَضَ الطَّبيبُ أَن تَكُـونَ هَـذهِ "لَيلَـةُ القَـبضِ علـى الأَحـلامِ" ، فَقَـرَّرَ تَطبيـقَ التَجرِبَةَ نَفسَها عَلى البَالِغين وجَاءَت النَتائِجُ لِتُؤَكِّد أَنَّ هَذِهِ هيَ لَحظَةَ الحُلمِ. وبِنَقلِ الافتِراضِ إلى عَالَمِ الحَيواناتِ تُبيِّنُ أَنَّها هِيَ الأُخرى تَحلُمُ!".

وعِنـدَ هَـذا الـحَدِّ بَلَـغَ حَمَـد أَقصَـى دَرَجـاتِ الإِحسـاسِ بِالدهَشـةِ فَأفلَـتَ مِنـهُ تَسـاؤُلٌ كَالطَّلَقَـةِ يَجمَـعُ بَـين الدَهشِـةِ والاستِنكَارِ:

"ماذا؟"

ومَا إِن لَمَحَ على وَجهِ السَيّدةِ مَا يَدُلُّ على استِيائِها مِن المُقَاطَعَةِ حتى قَالَ:

"آسِفٌ لِلمُقاطَعَـةِ لَكنَّ القَفزَةَ كَبيرةٌ بَين مَا تُسَمينَهُ: "القَبضَ على الأَحلامِ" وبَينَ أَحلامِ القِطَطِ ؟"

ودُونَ أَن تَتخلَّى عَن ثَبَاتِها وهُدُوئِها أَكمَلَت:

"في البِدايةِ لاحَظَ العُلَماءُ أنَّ القِطَطَ وَهيَ نَائِمةٌ تُحَرِّكُ أَطرافَها حَركاتٍ خَفيفةً وتُصدِرُ أَصواتاً مَكتُومَةً فَافتَرَضوا أَنَّها يُمكِنُ أَن تَكونَ مُؤشِّراتٍ على أَنَّها تَحلُمُ ولِهذَا السَّبَبِ اختَاروها لإجرَاءِ أَولِ تَجربَةٍ على الأَحلامِ عِندِ الحَيواناتِ. وبَدَأوا بِتَّتَبُعِ الإشاراتِ الوَارِدَةَ مِن المُخِّ إلى الأطرافِ أَثناءَ النومِ فَوَجَدوا أَنَّها تَسيرُ في المَسارِ نَفسِهِ الذي تَسيرُ فيهِ الإشاراتُ التي تَردُ مِن المُخِ للأطرافِ فَتُحرِّكُها عِندَما تَكونُ القِطَطِ في يَقظَتِها. وكَانَ مَعنى هَذَا أنَّ مُخَّ القِطَطِ يُصدِرُ أَوامِرَ للأطرافِ أَثناءَ النومِ. لَكنَّ المُفاجَأةَ كَانَت مُرورَ هَذِهِ الإشاراتِ أَثناءَ النومَ بِمَركَزٍ عَصَبيٍّ وَاحِدٍ مُختَلِفٌ ، وقَامَ العُلَماءُ بِتَدمِيرِ هَذا المَركَزِ العَصَبيِّ عِندَ قِطَطِ كَانَت تَحتَ الإختبارِ ، فَلَمَّا نَامَت أَصبَحَت تَأتي بِحَركاتٍ عَنيفِةٍ وتَقفِزَ وتُكَشِّرَ عَن أَنيابِها وَهيَ نَائِمةٌ".

واستَولَت الدَّهشَةُ عَلى حَمَد ومُحمَّد خليفة الذي بَادَرَ بِالقَولِ:

"وَاضِحٌ أنَّ السَيّدةَ ماري تَعتَبِرُكَ ضَيفاً استِثنائيّاً ، فَهذِهِ أَوَلُ مَرَّةٍ تَفتَحُ فيها صُندُوقَ أسرارِها أَمَامَي ، رَغمَ أَنَّني أَعرِفُها مُنذُ سَنواتٍ ، ولأَولِ مَرَّةٍ تَحكِي أَمَامي هَذه القِصَصَ المُثيرةَ".

والتَفَتَ مُحمَّد خليفة إِليها قَائِلاً بِابتسامة عَريضَةٍ وبِمَزيجٍ مِن المَدِيحِ والمُداعَبَةِ:

"لَدَيكِ مَوهِبَةٌ مُمَّيزَةٌ في القَصِ يَا سَيّدَتي ، وتُجيدينَ تَحويلَ مَفاهيمِ العِلمِ التي يَراها كَثيرونَ مُمِلّةً إلى شَيءٍ مُثيرٍ ، فَهَل تَسمَحين بِسؤالٍ ؟"

اِنفَرَجَت أَساريرُها مِن الثَّناءِ الجَزيلِ وشَعُرَت بِشَيءٍ مِن الزَهوِ المُهَذَّبِ وقَالَت:

"بِالإمكَانِ استِنتَاجُ سُؤالِكَ ، وأَتَوقَّعُ أَن يَكونَ لَدى السيّد حَمَد التَساؤُلُ نَفسُهُ".

وأَكمَلَت ماري وَهيَ تُشيرُ بِيدَيها كَما لَو كَانَت تَستَخدِمُ وَسيلَةَ إِيضاحٍ:

"الـمَركَزُ العَصَبيُّ الذي تَـمَّ تَـدميرُهُ كَـانَ دَورُهُ تَحويـلُ الأَوامِرِ الوَارِدَةِ مِن المُخِّ لِتُصبِحَ مُجرَّدَ حَركَاتٍ رَمزيّةٍ بَسيطَةٍ ، وبِتَدمِيرِهِ أَصبَحَت القِطَطُ تَتَصَرَّفُ في النَّوَمِ كَما تَتَصَرَّفُ في اليَقظةِ وتَفتَرِسُ فَرائِسَها الوَهميّةِ بِالحَركَاتِ نَفسِها التي تَأتيها وهـيَ مُستَيقِظَةٌ ، وهَـذا دَليـلٌ عِلمـيٌّ قَـاطِعٌ علـى أَنَّ القِطَـطَ تَحلُمُ!"

وفي رَدِّ غَير مُتَوَقَّعٍ مِن حَمَد تَوجَّه إِلى السَيّدةِ ماري وَهوَ نِصفُ شَارِدٍ وقَالَ:

"سَيدَتي .. .. هَل تَسمَحينَ لي بِفِنجَانٍ مِن القَهوَةِ"!!

وكَانَ أَطرَفَ تَعليقٍ يُمكِنُ سَماعُهُ على مَا سَرَدَتُهُ السَيّدَةُ مِن حَقائِقَ عِلميّةٍ.

وضَجَّ الثَّلاثَةُ بِالضَّحِكِ!

3

جَاءَ عَامِلُ خِدمَةِ الغُرَفِ بِفِنجانِ قَهوَةٍ وَاحِدٍ بَعدَ أَن اعتَذَرَ مُحمَّد خليفة عَن احتِساءِ أيِّ شَيءٍ ، ونَظَرَ حَمَد إِلى القَوامِ الغَليظِ لِلقَهوَةِ وبَدَأَ يَرتَشِفُها بِاستِمتاعٍ وَاضِحٍ. وكَانَت الدقَائِقُ القَليلَةُ التي مَرَّت أَقرَبَ إِلى "**هُدنَةٍ**" سَادَها الصَّمتُ.

رَشَفَ حَمَد رَشفَةً أُخرى مِن الفِنجانِ وقَالَ بِلَبَاقَةٍ مَن لا يُريدُ إِفسادَ جَوِّ المَوَدَّة مَعَ السَيّدِةِ المُهَذَّبَةِ:

"أَرجو أَلا تُسِيئي فَهمي وأَن تَتقَبَّلي صَراحَتي .. أَلا تَرينَ يَا سَيّدَتي أَنَّ هَذا تَرَفٌ ؟".

وسَكَتَ.

شَعرَ مُحمَّد خليفة بَشيءٍ مِن الحَرَجِ كَونُهُ هُوَ مَن عَرَّفَ الأَكاديمِيّةَ المَرموقَةَ بِهَذا الشَّابِ ، وقَبلَ أَن يَتَدَخَّلَ لِتَلطيفِ الأَجواءِ بَتغييرِ مَجرى الحِوارِ قَالَت السَيّدَةُ ماري:

"أنتَ تَطرَحُ سُؤالاً لا يَحتَمِلُ أيَّ نَوعٍ مِن سُوءِ الفَهمِ.. والمُتَخَصِّصونَ في هَذا العِلمِ طَالَما سَمِعوهُ بَألفَاظٍ أقسَى كَثيرًا مِن لَهجَتِكَ المُؤدَّبَةِ المُتَحَفِّظَةِ .. مَا لَديَّ لَيسَ إجابَةً بَل هَديَّةٌ".

وتَناوَلَت مَظروفًا رماديَّ اللونِ مُذَهَّبَ الحوافِ ذا أَنَاقَةٍ هَامِسَةٍ ، كَانَ مَوضوعًا بِجوارِ عُلبَةِ الشيكولاتة الفَاخِرةِ. وأَخرَجَت مَاري مِن المَظروفِ كِتَابًا لا يَقِلُّ عَنهُ أَنَاقَةً ، ومَدَّت يَدَهَا بِه لحَمَد قَائِلَةً:

"هَذا الكِتابُ لَك .. كُنتُ أَنوي أَن أَجعَلَهُ خِتامًا لِلقَائِنا تَتذَكَّرُني بِهِ: "عِندَمَا تَبكي الأَفيالُ: الحَيَاةُ الوجدَانيّةُ عِندَ الحَيواناتِ" لِلعَالِمَةِ إليزابيث مارشال".

وكَانَ عُنوَانُ الكِتابِ مِن الغَرابَةِ بِحيثُ تَفحَّصَهُ حَمَدُ وكَأَنَّهُ لا يُريدُ أَن يُصَدِّقَ .. وحَملَق في العُنوانِ جَيّدًا لِيتَأَكَّدَ أَنَّ الأَمرَ لَيسَ فِيهِ "**سوءُ تَفاهُم**"!.

أَمَّا ماري فَقَالَت:

"هَـذا مِـن أَوائِـل الكُتُـب التَّـي تُرجِمَـت لِلعَرَبيّـةِ فـي الـمَوضوعِ .. ويَحكـي قِصَّـة الصِّـراع فـي الـمُؤسَّساتِ العِلميّـةِ الغَربيّةِ بَين أَنصارِ "عِلمِ نَفسِ الحَيوانِ" وخُصومِهِ ، وكَيفَ أَنَّ أَسبَابَاً لا صِلة لَهَا بِالعِلمِ جَعَلَت البَعضَ يَرفَض الجَديدَ لأَنَّـهُ — فـي نَظَـرِهِم — يَقـولُ بوجـودِ حَيـاةٍ وجدَانيّـةٍ ومَشـاعِر عِنـدَ الحَيواناتِ..والعِلمُ لا يَقبَلُ الوصايةَ ولا القُيودَ".

واعتَدلَت ماري في جلسَتِها وقَالَت:

"أَمَّا إِجَابَتي فستَكونُ مُفاجِئَةً إِلى حَدٍّ مَا"!.

وتَبَادَلَ مُحمَّد خليفة وحَمَد نَظراتٍ صَامِتةً يَقطُرُ مِنها التَرقُّبُ والفُضولُ ، أَمَّا هيَ فاستَطرَدَت بِهُدوءٍ شَديدٍ .. بَعدَ بُرهةِ صَمتٍ مُتَعمَّدَةٍ:

"أَدعـوكَ لِزيـارةِ مَسـجِدِ نيروبـي وَطَـرحِ سُـؤالِكَ عَلـى الدكتور آدم مِرسال إِمامِ المَسجِدِ ، وَهوَ وَاحِدٌ مِمَّن أَثَّروا بِشدَّةٍ في جون بيري تومسون".

وتَناوَلَـت السَـيّدَةُ قِطعَـةً مِـن الشـيكولاتة السويسـرية الفَاخِرَةِ ، فَكَانَت وَسيلَةً ذَكيَّةً لإِغلاقِ فَمِها.. ..

وسَكَتَت شَهرَزَادُ عَن الكَلامِ المُباحِ!

4

عَادَ حَمَد إلى غُرفَتِهِ تَتَنَازَعُهُ مَشاعِرُ مُختَلِفةٌ وأَفكارٌ مُتَضَارِبَةٌ..في البِدايةِ كَانَ شَاعِراً بِالحَرَجِ مِن النِهايةِ غيرِ المُوفَّقَةِ لِهَذا اللِقاءِ الغَريبِ ، ثُمَّ تَحوَّلَ إلى التَفكيرِ في مَا قَالَتْهُ السَيّدَةُ عَن تَخَصُّصِها وَمَوضُوعِهِ ونَشأَتِهِ.

وبِالطَّبعِ فَكَّرَ حَمَد في الكِتَابِ الذي أَهدَتْه إيَّاهُ .. وتَأَمَلَهُ قَليلاً ثُمَّ فَضَّلَ ألا يَقرَأَهُ إلا بَعدَ أَن يَكونَ لَديهِ قَدرٌ مِن المَعرِفَةِ مِن مَصدَرٍ آخَر ، وبِخاصّةٍ أَنَّ المَوضوعَ مثير لِلجَدَلِ وجَديدٌ .. فِمنَ الأَفضَلِ أَن تَكونَ لَديهِ دِرايَةٌ بِالمَوضوعِ مِن مَصدَرٍ لا يَكونُ بِالنِسبَةِ لَهُ مُجرَّدِ اسمٍ غَربيٍّ عَلى غِلافِ كِتابٍ!

لَكِنَّ رِحلَةَ التداعياتِ انتَهَت عِندَ دَعوَتِها إيّاهُ لِلقاءِ الدكتور آدم مرسال إمامِ مَسجِدِ نيروبي ، وتَساءَلَ مَا إذا كَانَ هَذا للإفحامِ والإحراجِ أَم لأَنَّها فِعلاً تُريدُ أَن تَفتَحَ لَهُ بَاباً جَديداً مِن المَعرِفَةِ.

"لا .. لا هَذهِ سَيّدَةٌ مُهَذَّبَةٌ .. ومَنطِقُ الإفحامِ والإحراجِ هَذا لا يَليقُ بِها أَبَدًا .. لا .. لا".

بِهذهِ العِبارَةِ حَسَمَ حَمَد تَفكيرَهُ ، وبِالتداعي قَفَزَ إلى ذِهنِهِ اسمُ تُركي الحامِد الذي دَعَاهُ قَبلَ سَاعاتٍ لِزِيارةِ مَسجِدِ نيروبي فَقرَّرَ الاتصالَ بِهِ فَورًا.

استَدارَ حَمَد وطَلَبَ الرَّقَمَ وجَاءَه صَوتُ تُركي مُفعَمًا بِالسكينَةِ:

"وعَليكُمُ السَّلام وَرحمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُهُ أَخي حَمَد .. افتَقَدتُكَ اليَومَ في زِيارَتي لِلمَسجِدِ وأَظُنُّ أَنَّهُ فَاتَكَ الكَثيرُ".

وَوَفَرَّت عِبارةُ تُركي عَلى حَمَد عِبءَ أَن يَطلُبَ مِن رَفيقِهِ أَن يَصحَبَهُ لِزيارَةِ المَسجِدِ .. فَقَالَ كَمَن وَجَدَ ضَالَّتَهُ:

"بِإذنِ اللهِ أَستَدرِكُ مَا فَاتَني غَدًا".

واستَدرَكَ فيما يُشبِهُ الاستِئذانِ:

"هَذا طَبعًا إن كَانَ يُناسِبُكَ أن تَذهَبَ مَعي لِلمَرَّةِ الثَّانيةِ خِلالَ يَومينِ ، فَأنا أُريدُ لِقاء الدكتور آدم مرسال إمَامِ المَسجِدِ".

وتَوافَقا عَلى اللقاءِ في اليوم التَّالي لِلذهابِ مَعًا للمَسجِدِ.

أنهَى حَمَد المُكَالَمَةَ شَاكِراً وارتَدَى ثِيابَ النَّومِ واستَلقَى في فِراشِهِ ومَدَّ يَدَهُ إلى الريموت كُونترول لِيَفتَحَ التِلفازَ المُواجِهَ لِفِراشِهِ.

ثُمَّ قَرَّرَ أَن يُصفِّي ذِهنَهُ تَماماً لأجلِ لِقاء الغَدِ ، فَوضَعَ الريموت على الكومود المُجاوِرِ لِفِراشِهِ فِلَمَحَ الوَرَقَةَ التي شَرَع في تَسجيلِ يَوميّاتِهِ فيها قَبلَ الخُروجِ.

قَرَأَ حَمَد مَا كَتَبَهُ وأَمسَكَ بِالقَلَمِ ورَسَمَ عَلامَةَ نَجمةٍ ثانيةٍ وكَتَبَ عِباراتٍ قَصيرَةً:

"مـــاري مـــاك آرثـــر عُمرُهُـــا خَمسَـــةٌ وخَمســـونَ عَاماً..مُتَخَصِّصَةٌ في عِلمِ نَفسِ الحَيوانِ".

"دَعوَةٌ لِتَنَاولِ شاي الخَامِسَةِ مَساءً".

"لَيلَةُ القَبضِ عَلى الأَحلامِ".

"خِتامٌ غَيرُ مُوفَّقٍ لِلقَاءٍ مُهِمٍ".

"الدكتور آدم مرسال إِمَامُ مَسجِدِ نيروبي".

وبَدَأَ يَشعُرُ أَنَّ سُؤالَهُ الـمُندَفِعَ الـمُفتَقِرَ لِلكِياسَةِ جَعَلَ حَديثَ السيّدَةِ مَبتورًا .. فَعَن أَيِّ شيء سَيسأَلُ الدكتور آدم وكُلُ مَا سَمِعَهُ مُقَدِّماتٌ لَم تَكتَمِل .. صَحيحٌ أَنَّ اسمَ هَذا العِلمِ الـجَديدِ هـوَ بِحَـدِّ ذَاتِـهِ مَوضـوعٌ لِلتسـاؤلِ. وكَـانَ أَولُ سـؤالٍ يَشغَلُ بَالَ حَمَد: كَيفَ يُؤثِّرُ إِمامُ مَسجِدٍ في نيروبي في عَالِمٍ مُتَخَصِّصٍ في **"عِلمِ نَفسِ الحَيوانِ"** مِثلَ الدكتور جون بيري تومسون ؟.

وخَاطَبَ حَمَد نَفسَهُ مُؤنِّبًا:

"كَيفَ لَم أَصبِر حتَّى أَسمَعَ مِنها شَيئًا عَن قِصَّةِ اختِفاءِ هَذا الرَّجُلِ .. لَقَد نَبَّهَني مُحمَّد خليفة إلى أَنَّها كَانَت مَفتوحَةَ الشهيّةِ لِلكَلامِ هَذهِ الليلَة .. لَكِن لا بَأسَ ، فَكَما يَقولُ المَثَلُ: نُخطِئُ ومِن أَخطَائِنا نَتَعَلَّم".

دَقَّ الهاتِفُ وجَاءَ صَوتُ بَدرُ الصانع طَازِجًا مَرِحًا يَدعُوهُ لِلنزولِ إلى المَطعَمِ لِلعَشاءِ والخُروجِ في نُزهَةٍ ليليّةٍ في شَوارِعِ نيروبي. ورَدَ حَمَد مُعتَذِراً بِأَنَّهُ سيَطلُبُ العَشاءَ في الغُرفَةِ بَينما بَدرُ يُؤنِّبُهُ عَلى تَحَفُّظِهِ وانفِرادِهِ بَينَما المَكانُ يَدعو لِلانطِلاقِ.

ورَدَّ حَمَد بِتذكِيرِهِ بِأَنَّ مُنَظِّمي الرِّحلَةِ يُحَذِّرونَ بِشِدَّةٍ مِن الخُروجِ لَيلاً .. فَالعاصِمَةُ غَيرُ آمِنَةٍ.

وانتَهَت "**المُفاوَضاتُ**" دُونَ التَوصُّلِ إلى "**تَسويةٍ**"!.

طَلَبَ حَمَد عَشاءً خَفيفًا في الغُرفَةِ ، وأَزاحَ الستائِرَ عَن النَّافِذَةِ الكَبيرةِ المُؤديةِ إلى الشرفَةِ ، وتَأمَّلَ الأَضواءَ المُتناثِرةَ والمِساحاتِ الداكِنةَ الكَبيرةَ في مَنظَرِ نيروبي كَما تَبدو مِن نَافِذَتِهِ.

تَنَاوَلَ حَمَد عَشاءَهُ سَريعَاً ، واستَلقى عَلى مِقعَدِ بامبو مُـريحٍ غَـاصَ فِيـهِ ، وسَـاعَدَهُ الـهَواءُ البَـاردُ علـى الـمَزيدِ مِـن الاسـتِرخاءِ ، ورَاحَ فـي نَـومٍ عَميـقٍ أَيقَظَـهُ مِنـه صَـوتُ رَصـاصٍ مُتَفَرّقٍ. انتَبَهَ إلى نَومِهِ في الشرفَةِ ، فَانتَقَلَ إلى فِراشِهِ ونَامَ حتَّى أَيقظَتـهُ الشَّـمسُ الأفريقيّـةُ الفَتيّـةُ التـي اكتَسَـحَت غُرفَتَـهُ دُونَ استِئذانٍ.

5

كَانَ اليَـومُ مُخَصَّصًا لِلتسـوُّقِ فـي نِصـفِهِ الأَولِ ولِلسَّـمَرِ فـي نِصفِهِ الثَّاني ، فانعِـدامُ الأَمـنِ خَـارِجَ الفَنـادِقِ يَـدَفَعُ إداراتِهـا لِتَقديـمِ أَعمَـالٍ ترفيهيّـةٍ تَجعَـلُ النُـزلاءَ يَلزَمونَهـا لَـيلاً. وقَـرَّرَ حَمَـد قَضـاءَ النِّصـفِ الأَولِ فـي مَسـجِدِ نيروبـي مَـعَ تركـي .. وأَن يَتـرُكَ النِّصفَ الثَّاني دُونَ بِرنامجٍ مُحَدَّدٍ.

كَانَ أَسبَقَ إِلى طَلَبِ تركي فاتَّفَقا على اللقاءِ في استِقبالِ الفُندُقِ بَعدَ نِصفِ سَاعَةٍ كَانَت كَافيةً بِالكادِ لِطَلَبِ الإِفطارِ والصَّلاةِ. كَانَ بَعضُ الإِثارَةِ مُفيداً في رِحلةٍ تَحَوَّلَت إِلى تَجرِبَةٍ إِنسانيّةٍ جَميلَةٍ لَم يَتَوقَّع حَمَد خَوضَها في هَذا المَكانِ بِالذات.

انفَتَحَ بَابُ المصعَدِ وخَرَجَ حَمَد مَملوءاً بِالحَماسِ والحَيويّةِ فَالتقى تُركي الذي كَانَ طَلَبَ بِالفِعلِ مِن إِدارةِ الفُندُقِ سَيّارةَ أُجرَة لِتَنقُلَهُما لِلمَسجِدِ.

وفي الطَّريقِ طَرَحَ عَلى تُركي دُونَ أيّ مُقَدِّماتٍ سُؤالاً فَجَّاً مُبَاشِراً:

"قُل لي يا أَخ تُركي ، مَا الذي يُمكِن أَن يَستَفيدَهُ عَالِمٌ أمريكيٌّ مُتَخَصِّصٌ في "عِلمِ نَفسِ الحَيوانِ" مِن إِمامِ مَسجِدٍ كالدكتور آدم مرسال ؟".

كَانَ السؤالُ يَحتاجُ غَيرَ قَليلٍ مِن المُقَدِّماتِ مَا جَعَلَ تُركي يَقولُ:

"إنَّ مَعرِفَتي بِـ "عِلمِ نَفسِ الحَيوانِ" الذي تَسألُ عَنهُ لا تَزيدُ عَن مَعرِفَتِكَ أَنتَ بِالفيزياءِ النَّوويةِ!".

وانفَجَرَ حَمَد ضَاحِكًا بِأَعلى صَوتِهِ وقَالَ بِلَهجَةٍ سَاخِرَةٍ كَما لَو كَانَ يَستَعطِفُهُ:

"لـكَ إذن أن تَتخيَّـلَ أَنَّـني فوجِئـتُ بِـالأمسِ دُونَ مُقدِّماتٍ أَنَّني في حِوارٍ مَعَ عَالِمَةٍ أَمريكيّةٍ مُتَخَصِّصَةٍ في هَذا العِلمِ الجَديدِ"

وبِلَهجَةٍ تَمثيليّةٍ وأَداءٍ مَسرَحيٍّ قَالَ:

"وكَمـا تَسَـرَّعتُ الآنَ فـي طَـرحِ سُـؤالي عَليـكَ دُونَ مُقَـدِّماتٍ تَسَـرَّعتُ بِـالأمسِ ووَصَـفتُ هَـذا العِلـمَ بَأَنَّـه تَـرَفٌ ، فَأَنهَت النقاشَ نِصفَ غَاضِبةٍ ، ونَصَحَتني بِاللقاءِ مَعَ الدكتور آدم..وهـا أنـا دُونَ مُقَـدِّماتٍ أَيضـاً ذَاهِـبٌ لِلقـاءِ الـدكتور آدم مرسال".

وابتَسَمَ تُركي وقَالَ:

"وأَنا دُونَ مُقَدِّماتٍ..لا أَعرِفُ إِجَابَةَ سُؤالِك!!".

.. ..

وَصَلَت السَيّارةُ إلى المَسجِدِ فَانطَلَقَت مِن بَينِ شَفَتيّ حَمَد كَلِمَةَ إعجَابٍ كَالرَّصاصةِ:

"الله .. المَسجِدُ بَديعٌ يا تُركي .. ومِعمارُهُ فَريدٌ فِعلاً".

"ألَم أَقُل لَك بِالأَمسِ يَا حَمَد إنَّهُ مَعلَمٌ لا يَجوزُ أَبَدًا أَن تَفوتَكَ زِيارَتُه"؟

قَالَها تُركي وهَوَ يَتَأبَّطُ ذِراعَ حَمَد بِحُنُوٍّ ويَصطَحِبُهُ إلى الدَاخِلِ.

استَرسَلَ الرَّفيقانِ لَوقتٍ لَيسَ بِالقَصيرِ يَتأمَّلان مِعمارَ المَسجِدِ ويَلفِتُ كُلٌّ مِنهما نَظَرَ الآخَرِ إلى تَفصيلَةٍ مِن تَفصيلاتِ البِناءِ الذي جَمَع بَينَ البَهَاءِ والبَساطَةِ .. واتَّفَقَا على أنَّ مِعمارَ المَساجِدِ في مُعظَمِهِ فيهِ شَيءٌ يَبعَثُ على الرَّاحَةِ حتَّى لَو اختَلَفَ النَّمَطُ المِعماريُّ.

قَطَعَ أذانُ الظُهرِ نِقاشَهُما فَدخَلا إلى المَسجِدِ ولَفَتَ نَظَرُهُما بِشدّةٍ هذا التَنوُّع الكَبيرُ في هُويّاتِ المُصَلّينَ:

* أَفارِقَةٌ تُشيرُ مَلابِسُهُم إلى اختِلافِ أُصولِهِم العِرقِيّةِ وانتِماءاتِهِمُ القَبَليّةِ

* غَربيّونَ أَتوا لِلسِّياحَةِ وجَذَبَهُمُ المَسجِدُ كَمَعلَمٍ سِياحيٍّ..

* عَرَبٌ تَبايَنَت أَسبَابُ وُجُودِهِم في كِينيا بَينَ السِّياحَةِ والتِّجارَة.

* مُسلِمونَ غَربيّونَ قَليلونَ اصطَفّوا لِلصلاةِ مَعَ بَشَرٍ تَربِطُهُم بِهِم أُخوّةُ الدِّينِ .. رَغمَ اختِلافِ أَعراقِهِم وأَلوَانِهِم وأَلسِنَتِهِم وأَلبِستِهِم.

6

لَم يَكُن الرَّفيقانِ في حَاجَةٍ لِلسُؤالِ عَن الدكتور آدم مرسال فَقَد أَمَّهُم في الصَّلاةِ والتَفَّ حولَهَ عَدَدٌ مِن المُصَلّينَ بِمُجَرّدِ انتِهائِها يَسأَلونَهُ ويَستَفتونَهُ ، وهوَ يَنتَقِلُ بَينَ العَرَبيّةِ والإنجليزيّة بِحَسبِ لُغَةِ السَّائِل. فَالعَربيّةُ والإنجليزيّةُ تَتَنَافَسانِ دَاخِلَ المَسجِدِ ، فيما الإنجليزيّةُ تَسودُ خَارجَهُ.

تَمهَّلَ حَمَد وتُركي وهُما يَرقُبان انفِضاضَ النَّاسِ مِن حَولِ الدكتور آدم مرسال ، فَلَم يَكُن مَا لَدَيهِما استِفسارٌ فِقهيٌّ يَحتَمِلُ إجَابَة مُختَصَرَةً ، لذا كَانَا يُدرِكانِ أَنَّهُما في حَاجَةٍ لِلانفِرادِ بِالرَّجُلِ والفَوزِ مِنهُ بَأطوَلِ وَقتٍ يُمكِنُ أَن يَسمَحَ بِهِ انشِغَالُهُ.

انصرَفَ آخِرُ سائِلٍ واقتَرَبًا مِن الرَّجُلِ ذي المَلامِح الأفريقيّةِ الوَديعَةِ وأَلقَيا السلامَ..فَرَدَّ بِوَجهٍ بَشوشٍ ، وبَادَرَهُ حَمَد:

"**بِدونِ مُقَدِّمات**".

وكَادَت تُفلِتُ مِن تُركي ضِحكَةٌ غَيرُ مَقصودَةٍ ، والتَفَتَ إليهِ حَمَد وقَالَ:

"مَعَكَ حَقٌّ .. هَذِه الجُملَةُ غَالِبَاً لا تَأتي بِخيرٍ".

وكَادَ المَوقِفُ أن يَتحَوَّلَ إلى مَوقِفٍ سَاخِرٍ ، لَكِنَّ آدم مرسال كَانَ يَملِكُ رَصيدًا مِن السَّماحَةِ وسِعَةِ الصَّدرِ لا تَستَنزِفَهُ مِثلُ هَذِه المَواقِفِ غَيرِ المَقصودَةِ.

استَجمَعَ حَمَد شَجاعَتَهُ وتَركيزَهُ وقَالَ بِلَهجَةٍ هَادِئَةٍ بَعدَ نَفَسٍ عَميقٍ:

"إسمي حَمَد مِن قَطَر عمري تِسعَةَ عَشَرَ عَامًا وأَدرُسُ الاقتِصادَ في لَندن ، وجِئتُ هُنا في رِحلَةِ سافاري .. والتَقيتُ الدكتورة ماري ماك آرثر ، وبَعدَ نِقاشٍ عَن تَخَصُّصِها دَعَتني لأَن أَلتَقيَ بِك .. فهَل تَسمَحُ لَنا بِبَعضِ مِن وَقتِكَ".

وقَاطَعَهُ الدكتور آدم:

"تَفَضَّلا في مَكتَبي".

وأَصبَحَ حَمَد عَلى بُعدِ خُطوَاتٍ مِن إِراواءِ غَليلِ فُضُولِهِ.

7

كَـانَ مَكتَـبُ الـدكتور آدم صَـومَعةَ عِلـمٍ بِكُـلِّ مَعنـى الكَلِمَةِ ، فَهيَ غُرفَةٌ وَاسِعَةٌ جِدًا ، في مَبنىً قَريبٍ مِن الـمَسجِدِ ، وَهـيَ مُؤثَّـثَةٌ بِعِنايَـةٍ ، وتَحتَـلُّ الكُتُـبُ جُـدرَانَها مِـن الأَرضِ إِلـى السَّقَفِ في خَزائِنَ خَشَبيّة ذاتَ أَبوابٍ زجاجيّةٍ.

وما إِن دَخَـلَ الدكتور آدَمُ مَكتَبَـهُ حتَّى لَحِقَـهُ مُساعِدُهُ الشابُ ، فَالتَفَتَ إِليهِ الدكتور آدم قَائِلاً:

"ثَلاثَةُ أَكوابٍ مِن الشاي .. ولا تَدَع أَحَدًا يَدخُلُ عَلينا".

ونَظَرَ إِلى تُركي مُتَسائِلاً:

"أَظُنُّ أَنَّكَ صَلّيتَ مَعَنَا بِالأَمسِ".

فَرَدَّ تُركي وعَلى وَجهِهِ سَعَادَةٌ ظَاهِرَةٌ لأنَّ الإِمَامَ تَذَكَّرَهُ:

"نَعَم .. نَعَم وحَمَد كَانَ يُفتَرَضُ أَن يَأتيَ مَعي بِالأَمسِ لَولا لِقَاؤُهُ مَعَ السَيّدَةِ ماري".

وتَنَهَّدَ الدكتور آدم وقَالَ:

"نَعَم .. السيّدَةُ ماري .. في هَذِهِ السَيّدَةِ قُوَّةٌ وإصرارٌ مُدهِشان".

والتَفَتَ إلى حَمَد قائلاً:

"تَفضَّل .. .. مَاذا لَديكَ ؟".

كَانَ ارتِباكُ حَمَد في الرَدِّ يُنبِئُ عَن ذِهنِ مُشَوَّشٍ وفُضُولٍ لا يَعرِفُ صَاحِبَهُ مِن أَينَ يَبدَأُ ، فَقَالَ:

"المَوضوعُ – في الحَقيقةِ – غَريبٌ بَعضَ الشَيءِ .. وأَنا تَعَرَّفتُ عَليها في سُوءِ تَفاهُمٍ يُمكِنُ أَن يَحدُثَ لأَيِّ شَخصٍ .. ثُمَّ دَعَتني لِتَنَاوُلِ الشاي في غُرفَتِها..وفي هَذا اللقاءِ قَصَّت جَانِباً مِن قِصَّةِ "عِلِم نَفسِ الحَيوانِ" .. وانتَهَى الحِوارُ بِسوءِ تَفَاهُمٍ آخَر"!!!.

وتَدَخَّل الدكتور آدم بِتَعليقٍ سَاخِرٍ:

"بِدونِ مُقَدِّماتٍ أَيضًا .. أَليسَ كَذَلِك ؟!".

وضَحِكَ الثلاثَةُ!!

والتَقَطَ الدكتور آدم خَيطَ الحَديثِ:

"إسمَع يَا حَمَد..دَع السَيّدَةَ ماري جَانِبَاً وقُل لي: مَاذا تَفهَمُ أَنتَ مِن قَولِهِ سُبحَانَه وتَعالَى: "وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ"([1]) .. هَل هُنَاكَ مَصدَرٌ آخَرُ قَبلَ القُرآنِ أَخبَرَنا عَن وُجُودِ تَنظيمٍ جَمَاعيٍّ في حَيَاةِ الكَائِناتِ الأُخرَى ؟".

كَانَ السُّؤالُ عَلى بَسَاطَتِهِ الظَّاهِرَةِ كَالقُنبُلَةِ ، وقَبلَ أَن يَنتَظِرَ رَدَّ حَمَد وَاصَلَ الدكتور آدم حَديثَهُ بِلَهجَةٍ هادِئَةٍ ، فَأَضافَ:

"ومَاذا يَعني قَولُهُ سُبحَانَهُ وتَعالَى: "حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا

([1]) الآية رقم 38 من سورة الأنعام.

يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ"([2])؟ ولا تَنسَ أَنَّ الآيَةَ وَارِدَةٌ في سُورَةٍ بِاسمِ سُورَةِ النَملِ".

وقَاطَعَهُ حَمَد:

"لا .. لا عَفواً هَذِهِ الآيَةُ تُشيرُ إلى المِنَّةِ التي امتَنَ اللهُ بِها عَلى نَبيِّ اللهِ سُليمان عَلَيهِ السَّلامُ ، وكَانَ بِناءً عَلَيهَا يَعرِفُ لُغاتِ الكَائِناتِ الأُخرَى. وكَذلِكَ الحَالُ في قِصَّةِ حِوارِهِ عَلَيهِ السَّلامُ مَعَ الهُدهُد".

ورَدَّ الدكتور آدم وهو يحصي على أصابعهِ:

"جَميلٌ .. لَكِن ، أَوَلاً: هَذا يُؤَكِّدُ أَنَّ لِغَيرِ البَشرِ لُغاتٍ حتَّى لَو لَم نَعرِفها .. ثَانياً: اللهُ سُبحَانَهُ وتَعالَى يُخبِرُنَا في القُرآنِ أَنَّهُ شَاءَت إِرادَتُهُ أَن يَتَعَلَّمَ بَنو آدَم مِن جِنسٍ آخَرَ ، قَالَ تَعَالَى عن أَحَدِ ابنَي آدم: "فَطَوَّعَت لَهُ نَفسُهُ قَتلَ أَخيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصبَحَ مِن الخَاسِرين ، فَبَعَثَ اللهُ غُرابًا يَبحَثُ في الأَرضِ لِيُرِيَهُ كَيفَ

([2]) الآية 18 من سورة النمل.

يُواري سَوأَةَ أَخيهِ قَالَ يَا وَيلَتا أَعَجزَتُ أَن أَكونَ مِثلَ هَذا الغُرابِ فأُواري سَوأَةَ أَخي فَأَصبَحَ مِن النَادِمين"([3]).

وسَكَتَ حَمَد وبَدا عَليهِ الاستِغرابُ ، فَقَالَ لَهُ الدكتور آدم:

"ولَكِن مَا مَعنى هَذا؟ .. أَليسَ هَذا مَا تُريدُ أَن تَقولَ".

وأَومَأَ حَمَد بِرأسِهِ مُوافِقًا.

وقَبلَ أَن يُجيبَ الدكتور آدم كَانَت طَرَقَاتٌ عَلَى البَابِ تَلفِتُهُ لِيأْمرَ الطَّارِق بِالدُخولِ ، ودَلِفَ مُساعِدُهُ الشابُ حَامِلاً أَكوابَ الشاي وقَطَعًا مِن الحَلوَى فَوضَعَها وانسَحَبَ في هُدوءٍ.

امتَدَّت يَدُ المُضيفِ بِأكوابِ الشاي لِضَيفَيهِ بِالتَّتَابُعِ بِشكَلٍ آليٍّ وابتِسَامَةٍ وَدودٍ وَهوُ يَستَأنِفُ حَديثَهُ:

"يَا أَخي حَمَد .. اللهُ سُبحَانَهُ وتَعَالَى أَخبَرَ عَن نَفسِهِ فَقَالَ: "وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ" **.. وقَالَ أَيضًا "ولَقَد كَرّمنَا**

([3]) **الآيتان 30 و31 من سورة المائدة.**

بَني آدمَ وحَملنَاهُم في البَرِّ والبَحرِ"[4]. فَكَما أَنَّه كَرَّمَ بَني آدمَ حَدَّ حُدوداً ووَضَعَ قُيوداً عَلَى سُلُوكِهِم إزاءَ الكَائِناتِ الأُخرَى".

وتَدخَّلَ تُركي بَعدَ أَن بَدأَت دَهشتُهُ تَزولُ إِلَى حَدٍّ مَا وبَدَأَ يَستَكشِفُ مَرامي حَديثِ الدكتور آدم ، فَقَالَ مُوَضِّحًا:

"اِنظُر يَا حَمَد .. الدكتور يُريدُ أَن يَقولَ إِنَّ التَكريمَ الذي مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَى بَني آدمَ لا يَتَعَارَضُ مَعَ وُجُودِ حُقوقٍ لِلكَائِناتِ الأُخرَى حَدَّدَهَا الشَّرعُ بِوضُوحٍ. وفي السُّنَةِ أَحَاديثٌ كَثيرَةٌ في هَذا الشأنِ ، كَقَولِهِ صَلَّى اللهُ عَليهِ وسَلَّم: "إِيَّاكُم والمُثلَةِ ولَو بِالكَلبِ العَقورِ" ، وقَولُهُ أَيضًا: "إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحسَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ: فإذا قَتَلتُم فَأَحسِنوا القِتلَة ، وإذا ذَبَحتُم فأَحسِنوا الذَّبحَ ، ولْيُحِدَّ أَحَدُكُم شَفرَتَهُ ، ولْيُرِح ذَبيحَتَهُ".

ولاذَ حَمَد بِالصَّمتِ كَما لَو كَانَ يَهضِمُ مَا يَسمَعُ بِتُؤَدَةٍ ، والتَقَطَ الدكتور آدم خَيطَ الكَلامِ فَقَالَ:

([4]) الآية 70 من سورة الإسراء.

"أتعرِفُ يَا حَمَد .. بَعضُ القَبائِلِ هُنا عِندَ الزَّواجِ يَذبَحون ثَوراً ويَشرَبون دَمهُ .. والبَعضُ لَدَيهِم طُقوسٌ يَقتُلُون فِيها البَقَر بِطَرِيقَةٍ وَحشيّةٍ ولَدَيهِم مَراسِمُ احتِفَاليّةٌ لِشُربِ دَمِ البَقَرِ .. وبَعضُهُم يَتَلَذَّذون بِمَنظِر نَزعِ الروحِ ، وسَلَخِهم جِلدَ الحَيوانِ وَهوَ حَيٌّ"؟

ويَمتَقِعُ وَجهُ تُركي ويُغَالِب امتِعَاضَهُ مُتَسائِلاً:

"لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلا بِاللهِ .. عَفوًا .. يَا دكتور ، لَكِن كَيفَ يَفعَلون هَذا .. لا أَستَطيعُ حتَّى تَخيُّلَ كَيفيّةِ حُدُوثِهِ ؟".

ويَشرحُ الدكتور المَراسِمَ قَائِلاً:

"مَراسِمُ شُربِ دَمِ البَقَرِ تَتمُ عَن طَرِيقِ إطلاقِ سَهمٍ عَلى عِرقٍ في رَقَبَةِ البَقَرَةِ ويَجمَعون الدَمَّ في وِعاءٍ خَشَبيّ ويَخلِطونَهُ مَعَ الحَليبِ وهوَ شَرابٌ تَقليديٌّ لَدَيهِم".

وعِندَ هَذا الحَد يَبدأ صَبرُ حَمَد في النفادِ فَيُقَاطِعُهُ قَائِلاً بَشَيءٍ مِن الحِدَّةِ:

"هَذِه مَعلومَاتٌ قَد تَكونُ غَريبةً أو طَريفةً .. ولا شَكَّ في أَنَّها تَصدِمُ شُعورَ أيِّ إنسانٍ سَويٍّ .. لَكنَّني لا أَفهَمُ حتَّى الآن .. مَا دَخلُ هَذا بـ "عِلمِ نَفسِ الحَيوانِ"؟!!"

وانتَبَه حَمَد إلى أَنَّه يُكَرِّرُ الخَطَأَ نَفسَهُ الذي ارتَكَبَهُ مَعَ الدكتورة ماري ، وتَدَخَّل الدكتور آدم بِكيَاسَتِهِ لِيُنقِذَهُ مِن الحَرَجِ البَادي عَلَيهِ قَائِلاً:

"أنَا أُجيبُكَ .. إنَّ أَولَ ذَنبٍ شَهِدَهُ الكَونُ كَانَ بِسَببِ الغُرورِ والكِبرِ ، فَعِندَما أَمَرَ اللهُ سُبحَانَهُ وتَعَالَى المَلائِكةَ بِالسجُودِ لآدم رَفَضَ إبليسُ بِحجَّةِ أَنَّه خَيرٌ مِن آدم ، والمُبَرِّرُ الذي اعتَبَرَهُ إبليسُ كَافياً لأن يَعصيَ رَبَّ العِزَّةِ هوَ أَنَّه مَخلوقٌ مِن مَادّةٍ أَفضَلَ مِن المَادّةِ التي خُلِقَ مِنها آدم"

وغَيَّرَ الدكتور آدم نَبرَتَهُ مُرَتِّلاً:

"أنَا خَيرٌ مِنهُ خَلَقتَني مِن نَارٍ وخَلَقتَهُ مِن طين"([5]) ، والكِبرُ والغُرورُ مَرضانِ دَفَعَ العَالَمُ بِسَبَبِهِما ثَمَنًا فَادِحًا".

([5]) الآية 76 من سورة ص.

وبِكيَاسَةٍ تَولَّى تُركي طَرحَ الأَسئِلَةِ بَدلاً مِن حَمَد فَقَالَ:

"لَكِن مَا صِلَةُ الدكتور جون بيري طومسون بِهَذهِ النُّصوصِ والمَفاهيمِ الدِّينيّةِ ؟".

فَقَالَ الدكتور آدم:

"جون بيري طومسون وَاحِدٌ مِن مُؤسِّسي عِلم نَفسِ الحَيوانِ .. ودَخَلَ مَكتَبي لأَولِ مَرَّةٍ لِرَغبَتِهِ في لِقاءِ بَعضِ الرواندِيين الهَارِبين مِن الإبَادةِ الجَماعيّةِ. وكَانَ يُريدُ جَمعَ شهَاداتٍ عَن هَذا العُنفِ الرَّهيبِ لِيُقَارِنَ بَين السُّلوكِ العُدوانيّ عِندِ الإنسانِ وعِندَ الكَائِناتِ الأُخرَى .. لَكنَّ الحَديثَ امتَدَّ لجلساتٍ وتَشعَّبَ إلى أَن أَصبَحَ الرَّجُلُ على قَناعَةٍ بِأَنَّ الدّينَ لَهُ دَورٌ كَبيرٌ في مُقَاوَمةِ الغُرورِ والكِبرِ القَومي والعِرقيّ عِندَ الجَماعَاتِ المُختَلِفَةِ. وأَدرَكَ الأَثَرَ العَظيمَ لِمَفهومِ الرَّحمَةِ في الإسلامِ في عَلاقَاتِ البَشَرِ بِبَعضِهِم ، وعَلاقَتِهِم بِالكَائِناتِ الأُخرَى..وعَلى عَكسِ كَثيرٍ مِن المُثَقَّفين الغَربيين أَصبَحَ عَلى قَناعَةٍ بِأَنَّ الإسلامَ رِسالةُ رَحمةٍ".

وقَرَّر حَمَد أَن يَهربَ إِلى السخريةِ ، فَأَشَار بِيدِهِ لِلدكتور آدم مُستَوقِفاً وقَالَ:

"بِـدونِ مُقَـدَّماتٍ .. مَـا صِـلَةُ هَـذا بِـ "عِلِـمِ نَفـسِ الحَيوانِ"!!"

وقَهقَـهَ الثلاثـةُ بِصـوتٍ عـالٍ دَفَـعَ مُسـاعِدَ الـدكتور لأن يَدخُلَ لاستِطلاعِ سَبَبِ الصوتِ المُدَويّ!.

4

تَوقَّفَ الدكتور آدم لِبُرهَةٍ ثُمَّ التَقَطَ خَيطَ الحَديثِ بَادِئاً بِدَايَةً أُخرَى:

"إِسمع أخي حَمَد .. اليَومَ في الصَّلاةِ كَانَ يَقِفُ بِجِوارِكَ مُسلمون مِن رواندا..وهُم مَوجودون هُنا مُنذُ 1994..وقَبلَ أَن

تَسألَني عَن صِلَةِ هَذا بِالدكتورة ماري و"عِلمِ نَفسِ الحَيوانِ" سَأقولُ لَك .. هَؤلاءِ فَرّوا مِن بِلادِهم بِسببِ حَربٍ أَهليّةٍ سَقَط فِيها مَا يَقرُبُ مِن مليونٍ مِن المَدَنيين قُتِلوا بَأبَشَع الوَسائِل".

ومَدَّ الدكتور آدم يَدَهُ إلى ملَفٍ مِن بَين صَفِ ملفَّاتٍ مَرصوصَةٍ بِعنايَةٍ عَلى جَانِبِ مَكتَبِهِ مَكتوبٌ عَلَيهِ بِالعَرَبيّةِ والإنجليزيّةِ "**ملَفُّ رواندا**" ، قَالَ بِلَهجَةِ مَن عَثَرَ عَلَى ضَالَّتِهِ:

"اِسمَع مَعي هَذا الخَبَر ، إنَّهُ لا يَحكي قِصَّةَ مَأساةٍ حَدَثَت قَبلَ آلافِ السِّنين ، بَل مَنشورٌ في يناير 2009 ، فَهَذا الذي سَتَسمَعُهُ يَحدُثُ في القَرنِ الحادي والعِشرين .. وكَأنَّنا لَم نَتَقدَّم خُطوةً عَن أَشدِّ عُهودِ البِدائيّةِ والتخَلفِ".

وكَانَ هذا التَمهيدُ مُستَفِزّاً ومُشَوِّقًا في آنٍ وَاحِدٍ فَبَدَأَ يَقرأُ لِضَيفَيهِ وهو وَاثِقٌ مِن تَأثيرِ مَا سَيقولُ:

"بَعدَ 15 عَاماً عَلَى نَحرِهِم بِالمَناجِلِ بَعدَ تَقطيعِ أَجسادِهِم ، سَيَحظَى ما يُقارِبُ 11 أَلفَ رواندي مِن الذين وَقعَوا ضحايا أَعمَالِ الإبادَةِ الجَماعيّةِ ، وطَفَت أَجسادُهُم في نَهرِ

كيغارا ، ودُفِنوا في مَدافَنَ مُؤَقَّتَةٍ في أُوغَندا ، بِمرَاسِم لإعادَةِ دَفنِهِم بِطَريقَةٍ لائِقَةٍ".

وأَعَادَ الدكتور آدم الـملَفَّ مَكَانَهُ وقَالَ بِلَهجَةٍ تَقريريّةٍ وكَأَنَّهُ مُلاكِمٌ هَزَمَ خصمَهُ بِالضربَةِ القَاضيةِ:

"هَذه يا أَخي حَمَد حَالَةُ بَشَرٍ لَم يَتَعَلَّموا حتَّى اليَومِ دَرسَ الغُرابِ الذي حَفَرَ لِيواري جُثَّة أَخيه!".

وفي مُحَاوَلَةٍ للسيَطَرةِ عَلَى انفِعَالِه نَظَرَ الدكتور آدم مِن النَّافِذَةِ وارتَحَلَ بِنَظَرِه بَعيدًا وقَالَ:

"هَؤلاءِ قَتَلَهم الغُرورُ والكِبرُ .. وهو كَما يُصيبُ الأَفرادَ كَذَلِك يُصيبُ الأُمَمَ والجَماعاتِ والقَبائِل.."

وبِلَهجَةٍ أَقلَّ حُزنـاً قَالَ:

"ذَاتَ يَومٍ زارني مُفتي رواندا وقَالَ لي عِبارةً لا أَنساها".

وارتَفَعَ صَوتُهُ قَليلاً وأَصبَحَ يَضغَطُ عَلَى الكَلِمات:

"قَالَ لي: "الإسلامُ جَعَلَنا نَتَجنَّبُ الأَسوَأ".

والتَفَت إلى حَمَد وأَمسَكَ عَددًا مِن مَجلَّةٍ غَربيّةٍ مِن عَلى مَكتَبِه وقَلَّب صفَحَاتِها ثُمَّ قَالَ:

"سَأقرأُ لَكُما عِبارةً وَاحِدةً .. اسمع: "بَعدَ حُروبِ الإبَادةِ اعتَنَقَ الروانديون الإسلامَ بِأعدادٍ كَبيرةٍ ، حتَّى صارَ المُسلِمونَ الآن ضِعفَ مَا كَانوا عَليه قَبلَ المَذبَحَةِ ، ولَم يَنسَ الروانديون غَيرُ المُسلِمين كَيفَ قَامَ العَديدُ مِن القادَةِ المُسلِمين والأُسَرِ المُسلِمَةِ بِحِمَايَةِ كُلِّ مَن لَجَأَ إليهم مِن الهَارِبينَ مِن المَذابِحِ ، وهُم فَعَلوا هَذا لأَنَّ الإسلامَ يُحَرِّمُ القَتلَ والمَذابِحَ".

وأغلَق الدكتور آدم المجلَّةَ وأَكمَلَ وعَيناهُ تَكادانِ تَدمَعان:

"في مُؤتَمَرٍ أُقيمَ في هَذا المَكانِ سَمِعتُ بِأُذُني رواندية أَسلَمَت حَديثاً تَقولُ: "كَانَ المُسلِمون رَحمةً لِرواندا أَثنَاءَ المَذابِحِ وهَذا مَا جَعَلَني أَعتَنِقُ الإسلامَ عَن قَناعَةٍ".

وتَوجَّهَ الدكتور آدم بِمَوَدَّةٍ إلى ضَيفَيه وقَالَ:

"هَذهِ لَيسَت مُحَاضَرةً .. حاشا للهِ .. فَأنا مُتَأكِّدٌ مِن أَنَّكُما في غِنىً عَن مُحَاضَرةٍ .. لَكِنَّني أَرَدتُ أَن أُحَدِّثَكُما

بِالوَقائِعِ والـمَعلوماتِ الـمُوثَّقَةِ .. فَأنتُما تَدرُسانِ في مؤسَّسةٍ تَعليميّةٍ بِريطانيّةٍ مَرموقةٍ ، ومِن الـمُؤكَّدِ أن هَذا يَجعلَكُما لا تَتقبَّلان أيَّ حُكمٍ ما لَم يَكُن مُؤيَّداً بِالبَراهينِ الكَافيةِ".

وقَامَ الدكتور آدم مِن مِقعَدِه ورَكَّزَ بَصَرَهُ خَارِجَ الغُرفَةِ وقَالَ:

"البَشريّةُ بِحَاجَة إلى الكَثيرِ مِن التَّواضُع والـحِوَارِ وقَبولِ الآخَر"

والتَفتَ إلى حَمَد وقَالَ:

"وتَأكَّد أنَّ هَذا لَيسَ تَرَفًا أَبَدًا يا حَمَد .. فَالصِّراعُ يَبدَأُ فِكرَةً ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إلى فِعلٍ مُتَأخِّراً جَدًّا ، وتَجرِبَتي هُنا سَاعَدَتني عَلَى إدراكِ أنَّ الرَّحَمةَ لَيست تَرَفًا .. لا بَين البَشَرِ ولا بَينَهُم وبَين غَيرِهِم من الكائنات .. والغُرورُ كَلَّف البَشَرَ كَثيراً بَل كَثيراً جِدًّا..وارتَدوا بِسَبَبِهِ إلى الوَراءِ كَثيرًا وكَأنَّهُم وُحوشٌ ضاريةٌ. ولِذا فإنَّ مِن الخَطأِ الاستِهانَةُ بِعِلمٍ يُحاوِلُ استِكشَافِ العَالَمِ الشعُوريّ عِندِ الحَيواناتِ .. فَالتَكريمُ الإلَهيُّ للإنسانِ لا يَعني أَبَداً أَن نُحَدِدَّ نَحنُ لأنفُسِنا ولِلآخرين حُدودَ مَا يَجِبُ ومَا

لا يَجِبُ ، فإبليسُ ارتَكَبَ الخَطأَ نَفسَه فَعَصَى اللهَ وطُرِدَ مِن رَحَمَتِهِ".

وتَحرَّكَ حَمَد بِهدوءٍ نَحوَ الدكتور آدم مُتَحَدِّثًا بَلَهجَةٍ جَديدةٍ تَمامًا وقَالَ:

"أَنَا بِصدقٍ مُمتَنٌّ لَكَ جِدًا يَا دكتور آدم..لَقَد صَنَعَ لِقائي بِكَ وبالدكتورة ماري مَذاقًا خَاصًا لِهَذِهِ الزِّيارَةِ التِّي كَانَ يُمكِنُ أَن تُصبِحَ مُجرَّدَ إزجاءِ لِوَقتِ الفَراغِ".

.. ..

كَانَت كَلِماتٌ الدكتور آدم صَوتًا داخِليًّا مَنَعَ حَمَد مِن أَن يَنشَغِلَ بِالطريقِ .. وانطَلَق إلى السيّارَةِ وهوَ يُرَدِّدُ:

"هَذَا لَيسَ تَرَفًا أَبَدًا"

وجَلَسَ تُركي صَامِتَاً يَتَأَمَلُ مِن زجاجِ النَّافِذَةِ.

الفصل الثالث
بـــِدوُنِ مـُـقَـــدِّمَـاتٍ !

1

جَلَـسَ حَمَـد فـي شُـرفَةِ غُرفَتِـهِ ولامَـسَ الـهَواءُ البـارِدُ الـمُنعِشُ وَجَهَـهُ وغَـاصَ فـي الكُرسـيِّ الـمُريحِ مُسـتَرخياً ، لَكِـنَ رَأسَـهُ كَـانَ أَبعَـدَ ما يَكُونُ عَـن الاستِرخاءِ. كَانَ يَشـعُرُ كَأنَّ فـي

رَأسِهِ طاحونةٌ: أَفكارٌ..عِباراتٌ..تساؤلاتٌ تَرَكَها لِقَاؤُه بالدكتورة ماري..وسَيلُ الأَفكارِ والتَفسيراتِ والنُصوصِ التي غَمَرَهُ بِها الدكتور آدم ، وتَمتَمَ:

"يَا الله .. موضوعٌ عَويصٌ".

لَكِنَّهُ كَانَ سَعيدًا بِالفِعلِ ، فما كَان يَبدو لأَولِ وَهلَة غَريبًا عَليهِ مَسَّ فيه شَيئًا.

ووَسطَ تداعياتِ اللقاءين رَنَّ جَرَسُ الهَاتِفِ فَأَسرَعَ لِلرَدِّ مُتَوقِّعًا أن تَكونُ السيّدةُ ماري عَلى الطَرفِ الآخَرِ ، لَكِنَ صَوت مُحمَّد خليفة جَعَلَهُ لا يَشعُرُ بِالخَيبَةِ ، وبَادَرَهُ حَمَد مُرَحِّباً:

"أَهلاً..اتِّصالُكَ جَاءَ في مَوعِدِهِ تَمامًا .. أَولاً"

ثُمَّ اكتَسى صَوتُهُ بِنَبرَةٍ سَاخِرةٍ:

"بِدونِ مُقَدِّماتٍ .. أَنا آسِفٌ على ما حَدَثَ مَعَ الدكتورة ماري .. وأَعرِفُ أَنَّني سَبَّبتُ لَك حَرجًا".

وضَحِكَ مُحمَّد خليفة وقَالَ:

"إطلاقًـاوهيَ كَانَـت سَـعيدةً بِنَجاحِهـا فـي اسـتِئارَتِكَ ذِهنيًا .. لَكنَّني افتَقَدتُكَ في جَولَةِ التسوُّقِ وطَلَبتُكَ في الغُرفَةِ مَرّاتٍ قَبلَ أن أَعرِفَ أنَّكَ خَرَجتَ مَعَ صَديقِكَ تُركي".

وتَبَخَّـر إحسـاسُ حَمَـد بِـالَحرَجِ وعَـادَت لِصَـوتِهِ نَبرَتُـهُ الطبيعيّةُ وقَالَ:

"نَعَم .. نَعَم .. والهَاتِفُ لَن يَكونَ مُناسِباً لِلتَفاهُمِ..هَل تُمانِعُ في تَناولِ الشاي مَعي في غُرفَتي ؟"

وضَحِكَ مُحمَّد خليفة وقَالَ:

"بِدونِ مُقَدِّماتٍ .. هذا تَرَفٌ .. لَكِنَّني رَغمَ هذا سأكونُ في غُرفَتِكَ بَعدَ دَقائِق"!

أَغلَقَ حَمَد الهَاتِفَ ثُمَّ تَناوَلَ السَمَاعةَ مَرَّةً أُخرَى وطَلَبَ مِن خِدمَةِ الغُرَفِ كوبَينِ مِن الشاي ، ولَم يَطُل انتِظارُهُ .. فَقَد جَاءَ عَامِل خِدمَةِ الغُرفِ ومُحمَّد مَعًا.

دَخَلَ مُحمَّد مُبتَسِماً في يده جِلبابٌ أفريقي ذي أَلوانٍ زَاهيةٍ وقَالَ لحَمَد:

"اشتريته نيابة عنك ، وأرجو أن يعجبك".

ونَظَرَ حَمد إلى الجِلبابِ لِلَحظَةٍ ثُمَّ قَالَ:

"سَيكونُ أَجمَلَ تَذكارٍ أَحمِلُهُ مِن هذا البَلَدِ .. شُكراً يا مُحمَّد .. شُكرًا عَلى كُلِ شَيءٍ".

وأشار حَمَد لـمُحمَّد لَيدخُلَ فَجَلَسَ في مقعَدٍ مُواجِهٍ لِلشُرفَةِ وبَدأَ مُحمَّد الكَلامَ فَقَالَ:

"بِفراسَتي أَقولُ إنَّ نَبرَةَ صَوتِكَ تُشيرُ إلى أَنَّكَ التَقيتَ بِالدكتور آدم مرسال .. أَليسَ كَذَلِك ؟".

رَدَّ حَمَد وَهوَ يُناوِلُهُ كُوبَ الشاي:

"نَعَم..لَكِنَّ الوَقتَ لَم يَتَّسِع لأن أَسأَلَهُ عَن جون بيري تومسون.. وإن كَانَ كُلُّ ما قَالَهُ كَانَ كَأَنَّهُ عَنهُ دُونَ أَن يَذكُرَ اسمَهُ.. أتفهمني ؟"

وأَومَأَ مُحمَّد خليفة مُوافِقًا وقَالَ:

"أَفهَمُكَ .. ويُمكِنُني أَن أُكمِلَ ما بَدأَهُ الدكتور آدم".

واعتَدَلَ حَمَد في جلسَتِهِ مُبديًا اهتِمَامًا شَديدًا .. بينما مُحمَّد خليفة يُكمِلُ:

"هَذا الرَّجُلُ كَانَ مِن أَهَمِّ المُتَخَصِّصين في عِلمِ نَفسِ الحَيوانِ ، لَكِنَ اتِّجَاهَهُ لِدِراسَتِهِ كَانَت وَرَاءَهُ خَلفياتٌ إنسانيّةٌ لَم تَتَطَّرق إليها السيّدةُ ماري في حَديثِها مَعَكَ..رُبَّما لأن أَسئِلَتَكَ أَخَذَت الحِوارَ في مَسارٍ آخَر".

وكَأَنَّ حَمَد قَرَّرّ أن يُكَفِّرَ عَن خَطَأِ تَسَرُّعِهِ المُتَكَرِّرِ ، مَرَّةً مَعَ الدكتورة ماري ومَرَّةً أُخرَى مَعَ الدكتور آدم .. فَوضَعَ يَديهِ عَلى صَدرِهِ ، وجَلَسَ في وَضعِ المُتَأَهِّبِ لِلسَماعِ الطَّويلِ والصَمتِ الصبورِ ، واستَشعَر مُحمَّد خليفة ذَلِكَ فانطَلَقَ دون تَوقُّفٍ.

"هَذا الرَّجُلُ جَاءَ إلى هُنا بَعدَ أَن فَقَدَ زَوجَتهُ في حَربِ البَلقانِ عام 1992 .. كَانَت زَوجَتُهُ كرواتية هَاجَرت إلى أَمريكا في مُنتَصَفِ الثمانيناتِ وتَزوَّجا .. وقَبلَ بَدءِ الحَربِ الأهليةِ بَين الصِّربِ والكِروات عَادَت إلى بِلادِها في إجازةٍ ، وهُناكَ قَتَلَتها ميليشيا صربيةٌ بِشكلٍ وَحشيّ.

كَانَ حَمَد مَدفوعًا لِلصَّمتِ لِكي يُعَوِّدَ نَفسَهُ أَلا يَتَسَرَّعَ ، ولأنَّهُ لَم يَكُن يَستَمِعُ لَلحديثِ عَن سَفكِ الدَّمِ لِلمَرَّةِ الأولى في هَذِهِ الرِّحلَةِ فَاكتَفى بِامتِعاضٍ ظَاهِر على وَجهِهِ. واستَمَرَّ مُحمَّد في سَردِ قِصَّةِ الدكتور جون بيري تومسون وَهوَ يَرشُف رَشفاتٍ مُتقَطِّعَةٍ مِن الشاي:

"طَبعًا كَانَت صَدمَةً كَبيرةً لَكِنَّه قَرَّرَ أَن يُحَوِّلَ حُزنَهُ عَلَيها إلى طَاقَةٍ يُوَجِّهُهَا لِفِعلٍ إيجابيٍّ. واستَقرَّ بَعدَ تَفكيرٍ عَلى أَن يُحيـيَ ذِكراها مِن خَلالِ عَمَلٍ لا يَنقَطِعُ لاستِئصالِ ثَقافَةِ الكَراهيةِ والعُدوانِ".

واستَطرَدَ مُحمَّد خليفة:

"عَمِلَ جون لَتحقيقِ هَدَفِهِ وهو في أمريكا حتَّى عام 1994 عِندَمَا اندلَعَت الحَربُ الأَهليّةُ في رُواندا .. ونَكَأَت الكَارِثةُ جُرحَهُ. وقَدَ لَفَتَ نَظَرَهُ بِشِدَّةٍ أَن مُسلِمي رواندا لَم يَتورَّطوا في الحَربِ .. وكَانَتَ ظَاهِرَةً كُتَبَ عَنها في الإعلامِ الغَربيّ .. وبِسبَبِ الأَحوالِ المَأساويّةِ دَاخِلَ رواندا فَضَّل الدكتور جون الإقَامَة هُنا في كِينيا ، وبِالتَّالي لَم يَكُن هُنَاكَ مَن

هوَ أَفضلُ مِن الدكتور آدم مِرسال فَذهَبَ إليه بَاحثًا عن إجَابَةٍ عَن هَذا السؤالِ".

ونَوقَّفَ مُحمَّد خليفة لِلَحظةٍ ثُمَّ قَالَ مُداعِبًا حَمَد:

"مِنَ الـمُؤكَّدِ أَنَّ الـحِوارَ مَعَ شَخصٍ مُتَسَرّعٍ أَمرٌ غَيرُ مُريحٍ .. لَكِنَّ الحِوارَ مَعِ شَخصٍ أَخرَسٍ أَمرٌ غَيرُ مُحتَمَلٍ!!!"

وأَطلَقَا ضِحكَةً عَاليَةً ، وأَردَفَ مُحمَّد خليفة:

"نَعَم .. فَأَنتَ فَجأَةً أَصبَحتَ صَامِتاً تَمَامًا .. ما عَلَينا .. لَقَد كَانَ أَكثَرَ ما أَدهَشَ الدكتور تومسون مِن حِواراتٍ كَثيرَةٍ مَعَ الـدكتور آدم العَلاقَـةُ التـي يُقيمُهـا الإسـلامُ بَـين "الغَريـزَةِ" و"الفِطرَةِ" .. فَالفِطرَةُ تُسيطِرُ عَلَى الغَرَائِزِ وتُهَذِّبُها وتَمنَعُها مِن التَّحَوُّلِ إلى وَحشٍ كَاسِرٍ ، غَريزَةُ البَقاءِ .. غَريزَةِ التَّمَلّكِ .. غَريزَةُ حُبِّ الذات .. وغيرها .. وقَد وَجَدَ فيها الرَّجُلُ مَدخَلاً لِلاستِفادَةِ مِـن عِلـمِ نَفـسِ الـحَيوانِ ، فَهـذِه الكَائِنـاتُ تَشـتَرِكُ مَعَنـا فـي الغرائز ، ونَتَميّزُ نحنُ عَنها بِأَنَّنا مُكَلَّفون ولَنا حَقُّ الاختِيارِ ، وَهـوَ حَـقٌّ قَـد نَسـتَخدِمُهُ بِشـكَلٍ يتوافَـقُ مَـعَ الفِطـرَةِ ، وقَـد نَستَخدِمُهُ بِشكلٍ يَتوافَقُ مَعَ الغَريزَةِ".

وأَشَارَ حَمَد بِيَدِهِ مُقاطِعًا لَيشرَحَ لمُحمَّد مَا فَهِمَهُ بَلَهجَةٍ تَجمَعُ بَينَ التَقريرِ والاستِفهَامِ كَأَنَّه يَتأَكَّدُ مِن صِحَةِ مَا فَهِمَهُ:

"فإذا استَخدَمنا حَقَّنا في الاختيارِ وَفقاً لِقانونِ الفِطرَةِ نَكونُ قَد حَقّقنا إنسانيتَنا وأَصبَحنا مُستَحِقينَ لِلتَكريمِ الإلَهيّ .. وإن استَخدَمناهُ وَفقاً لِقانونِ الغَريزَةِ يَتَحوَّلُ العَالَمُ إلى غَابَةٍ".

وأَدرَكَ مُحمَّد أَن حَمَداً استَوعَبَ القَضيّةَ سَريعًا ، فَأَضَافَ:

"وكَانَ لدى الدكتور جون بيري تومسون قَناعَةٌ بِأَنَّ الغُرورَ مِفتاحُ كُلِّ الشُرور .. غُرورُ الأَفرادِ والجَماعاتِ بَل حتَّى الأُمَم".

وتَكفَّلَ الهَاتِفُ بِإيقافِ الحِوارِ ، وانتَقَلَ حَمَد لِلرَّدِ عَلَى الهَاتِفِ ونَظَرَ إلى مُحمَّد مُبتَسِماً وقَالَ:

"أَهلاً دكتورة ماري .. مُفاجَأَةٌ جَميلَةٌ"

وصَمَتَ قَليلاً ثُمَّ قَالَ:

"طَالَما أَنَّها لَيسَت دَعوَةً لَتناوُلِ شاي الخَامِسَةِ مَساءً فُيمكِنُكِ دَعوَتي وأَنتِ مُطمَئِنَّة!"

وأَغلَقَ الهَاتِفُ وأَشارَ لِصَديقِهِ الكِينيّ بِحَرَكَةٍ مَسرحيّةٍ .. وتَوجَّها نَحوَ البابِ دُونَ كَلامٍ.

2

في المصعَد سَأَلَ مُحمَّد خليفة عَن وِجهَتِهِما فَقَالَ حَمَد:

"اليَومَ سيُعرَضُ فيلمُ كَارتون إِسمُهُ "جَبَلُ الدهشَةِ" وهو يَدور في أَجواءٍ أفريقيةٍ ومُتَرجَمٌ لِلعَرَبيّة".

وانفَـتَحَ بَـابُ الـمصعَدِ لَيجِـدا السـيّدَةَ الوَقـورَ فـي انتِظارِهِما بوَجهٍ طَلقٍ وثِيابٍ أفريقيةٍ وتَصَافَحوا فَدَاعَبَها مُحمَّد خليفة قَائِلاً:

"بِدَعوَتِك هَذه يا دكتورة ماري تُؤَكِّدينَ أَنكِ أَصبَحتِ أَكثَرَ خِبرَةً مِنّي بِما يُقَدَّمُ في الفُندُقُ مِن بَرامِجَ تَرفيهيّةٍ .. وبِهذا الثَوبِ الأَفريقيّ أَنتِ إفريقيّةٌ أَكثَرَ مِنّي ؟!".

أَعطَت الدكتورة ماري كُلاً مِنهُما بِطَاقَةَ تَعريفٍ مَصقولَةً عَـن الفيلمِ الـمَعروضِ ، وتَناوَلَها حَمَد بِاهتِمامٍ يُغايرُ إِحسَاسَهُ السَّابِقَ بِأَنَّ ما تَهتَمُّ بِهِ الدكتورة ماري مُجرَّدُ تَرَفٍ. وقَرَأَ حَمَد عَلَى البِطاقَةِ اِسمَ الفيلمِ: "**جَبَلُ الدهشَةِ**" ، وتَوجَّهَ إِلى مِقعَدِه بصالة العَرضِ في صَمتٍ.

أُطفِئَت الأَنـوارُ .. وسَـادَ الصَّـمتُ .. وأَطَلَّـت الطبيعَـةُ الأفريقيةُ البِكرُ عَلَى الشاشة بِإِبهارٍ شَديدٍ.

بَدَأَ الفيلمُ بِمَشهَدٍ لِغَابَةٍ مِن غَاباتِ السافانا الأفريقيّة .. حَيـثُ الـخُضرَةُ زَاهيَـةٌ بِشَـكلٍ اسـتِثنَائِيّ .. والنَـدَى يَلمَـعُ عَلَى الأوراقِ الغَضَـةِ ، والأَنــهارُ والـجَداوِلُ تَتـدَّفَقُ بِعُنفـوانٍ بَـريٍّ

مُعانِقَةً الصُخورِ .. هادِرَةً حِيناً وهَادِئَةً أَحيَاناً أخرى ، وتَتَلأَلأُ الشَّمسُ فَوقَ سَطحِها بِوَهَجَ أَفريقيّ .. وفي هَذِه البَراري الشَّاسِعَةِ تَبدو الأَشياءُ وَفيرةً ، وطَازِجَةً ، وزَاهيةٍ.

وجَاءَ صَوتُ الراوي حَالِمًا:

"حِكايَتُنا تَدورُ في غَابَةٍ كَانَت تَعيشُ فيها أَنواعٌ مُختَلِفَةٌ مِن الكَائِناتِ الحَيّة..وكَانَت تَتَعايَشُ عَلى اختِلافِ الأَنواعِ والأَحجَامِ. وكَانَ بَينَهُم أَسَدٌ يَملِكُ عَلى سَائِر سُكَّانِ الغابة .. بِالحِكمَةِ لا بِالقُّوةِ".

"كَانَ كَبيرَ السنِ .. كَثيرَ الخِبرَةِ .. وَاسِعَ الصَّبرِ .. يَستَمِدُّ سُلطَتَهُ عَلَى سُكَّانِ الغَابَةِ مِن حِكمَتِهِ وعَدلِهِ لا مِن بَطشِهِ .. فَكانَ عَقلُه أَكبَرَ مِن أَنيَابِهِ .. وكَانَ مَنطِقُهُ أَكثَرَ حِدَّةً مِن مَخَالِبِهِ".

"كَانَ سُكَّانُ الغَابَةِ يَجتَمِعون كُلَّ مَسَاءٍ أَمَامَ عَرينِهِ لَيعقِدوا جَلسَةَ سَمَرٍ .. يَستَفيدون فيها مِن حِكمَتِهِ ، أَمَّا هو فَكَانَ يَستَفيدُ مِن حُبِّهِم لِلقَصَصِ التي يَروِيها لَهُم .. فَكَانَ يَجعَلُها فُرصَةً يُعَلِّمُهُم مِن خِلالِها ويُهَذِّبُ أَخلاقَهَم".

"وكَما كَانَ هذا الأَسَدُ يَملِكُ قُلُوبَ سُكّانِ الغَابَةِ .. كَانَ يَحوزُ ثِقَتَهُم التامَةَ في عَدالَةِ أَحكَامِهِ وفي رَحمَتِهِ .. فَكانوا يَطلُبون مِنهُ الفَصلَ في نِزاعَاتِهِم .. وكَانَ في مَجلِسِ قَضائِهِ لا يَحكُمُ إلا بَعدَ أَن يُفَسِّرَ لَهُم سَبَبَ حُكمِهِ .. وبَعدَ أَن يُعَلِّمَهُم في كُلِّ نِزاعٍ حِكمَةً .. قَبلَ أَن يُصدِرَ في النِزاعِ حُكمًا".

"وكَانَ أَولُ مَا عَلَّمَهُم أَن يَجلِسوا في مَجلِسِ القَضاءِ وفي مَجلِس السَّمَرِ في شَكلِ دَائِرةٍ .. فَالدائِرَةُ شَكلٌ يُؤَكِّدُ المُساواةَ ويَحُضُّ عَلَى التَواضُعِ".

"وذَاتِ يَومٍ كَانَ سُكّانِ الغَابَةِ كَعَادَتِهِم في مَجلِسِ سَمَرِهِم أَمامَ عَرينِ الأَسَدِ..وكَانَ مِن عَادَةِ الأَسَدِ قَبلَ أَن يَقُصَّ عَلَيهِم قِصَّةً يُسَلِّيهِم ويُعَلِّمُهُم بِها .. أَن يَفتَحَ البَابَ لِمَن عِندَهُ شَكوى أَو سُؤالٌ".

"وفي هَذَا اليَومِ بَرَزَ الفيلُ مِن مَكَانِهِ .. والحُزنُ بَادٍ عَلَى وَجهِهِ .. وبَدَأَ يُقَدِّمُ شَكواهُ لِمَلِكِ الغَابَةِ .. كَانَ الفيلُ يَشكو مِن الثَّعلَبِ طَالِبًا مِن الأَسَدِ أَن يَفصِلَ بَينَهُما".

"وبَدَأَ الأَسَدُ في سَماعِ شَكَوى الفيلِ ، كَانَ كُلُ سُكّانِ الغَابَةِ تَتَعلَّقُ أنظَارُهُم بِالفيلِ الذي قَالَ وهو غَاضِبٌ:

"يَا أَيُّها الأَسَدُ الحَكِيمُ .. اليَومَ سَأَلَني الثَّعلَبُ سُؤَالاً مُحَيِّراً فَكَرتُ فِيهِ قَدرَ استِطاعَتي .. لَكِنَّني عَجَزتُ عَن الإجَابَةِ عَنهُ. وَعِندَما قُلتُ لَهُ إنَّني لا أَعرِفُ الإجَابَةَ سَخِرَ مِنِّي وقَالَ: "تَعجَزُ عَن إجَابَةِ سُؤالٍ بَسيطٍ يَا ذا الحَجمِ الكَبيرِ والخُرطومِ الطَّويلِ والغَباءِ الوَفيرِ"..

"وَغَضِبَ الأَسَدُ مِن وَقَاحَةِ الثعَلَبِ ولِسانِهِ السَّليطِ .. لَكنَّهُ سَيطَرَ عَلَى غَضَبِهِ نَظَرَ إلى الثَّعلَبِ الذي صَمَتَ وسُكَّانُ الغَابَةِ يَنظُرون إليهِ ويَتوقَّعون مِنهُ أن يَعتَذِرَ لِلفيلِ أو أن يَقولَ إنَّه لَم يَقصِد السُّخريَةَ مِنهُ ، لَكِنَّه وَقَفَ صامِتاً يَختَلِسُ النَّظَرَ يَميناً ويَساراً في مَكرٍ".

"وخَرَجَ الأَسَدُ عَن صَمتِهِ وقَالَ مُحَدِّثًا الفيلَ:

"فَهَل تُريدُ مَعرِفَةَ إجَابَةِ السؤالِ أَم مُعَاقَبَةَ الثَّعلَبِ لسُخرِيَتِهِ مِنكَ ؟".

"فَقَالَ الفيلُ:

"كِلا الأمرين مَعًا .. أيُّها الأَسَدُ الحَكيمُ .. فَلَقَد ضَحِكَ عَلَيَّ بِسَبَبِ كَلامِهِ البَذيءِ الأَرنَبُ والحِمارُ الوَحشيُّ .. بل حتَّى القِردُ".

"ضَحِكَ سُكّانُ الغَابَةِ فَسَكَتَ الفيلُ عَن الكَلامُ .. ورَفَعَ خُرطُومَهُ عَالِياً وضَرَبَ الأَرضَ في غَضَبٍ. وأَشارُ الأَسَدُ بِيدِهِ لِسُكّانِ الغَابَةِ ، فَصَمتوا ، ثُمَّ نَظَرَ الأَسَدُ إلى الفيلِ وقَالِ بِنَبرَةٍ هادِئَةٍ تُناسِبُ مَجلِسَ الفَصلِ بَينَ المُتَخاصِمين:

"ومَا السُّؤالُ الذي جَعَلَ الثعلبَ يَسخُرُ مِنكَ ؟".

"فَقَالَ الفيلُ وَهوَ يُطأَطِئُ رَأسَهُ خَجَلاً:

"سَألَني: مَن أَفضلُ سُكّانِ الغَابَةِ ؟"

"وأَدرَكَ الأَسَدُ بِحِكمَتِهِ أَن السُّؤالَ خَبيثٌ .. وأَنَّ الإِجَابَةَ عَنهُ سَتَفتَحُ البَابَ لِفِتنَةٍ كَبيرَةٍ وصِراعٍ بَين سُكانِ الغَابَةِ فَقَالَ:

"وهَلَ يَجِبُ أَن يَكونَ هُناكَ نَوعٌ بِعينِهِ هُوَ أَفضَلُ سُكّانِ الغَابَةِ ؟ .. فُهنَاكَ الأَكبَرُ كَالفيلِ .. والأَطوَلُ كَالزَّرافَةِ ..

والأَجـمَلُ كَالطَّاووسِ .. وهَكَذا .. وكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا فِيه مَيزَةٌ أَو أَكثَرُ يَنفَرِدُ بِها عَن الآخَرين".

"كَانَ السُّؤالُ مُفَاجِئاً لِبَعضِ سُكّانِ الغَابَةِ ، وقَد أَعجَبَهُم أَن يَكونَ هُناكَ وَاحِدٌ يَحمِلُ مُنفَرِدًا لَقَبَ "أَفضَلَ سُكّانِ الغَابةِ". وَظَنَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِن سُكّانِ الغَابَةِ أَنَّه هوَ مَن سَيَفوزُ بِهذا اللقَبِ .. ولِذا لَم يَقتَنِعوا بِإِجَابَةِ الأَسَدِ .. وكَانَت هَذِهِ هي الفِتنةَ التي يَخشاهَا الأَسَدُ".

"وأَدرَكَ الثَّعلَبُ بِدَهائِهِ أَنَّ سُؤَالَهُ أَثارَ في كُلِّ وَاحِدٍ مِن سُكّانِ الغَابَةِ مَيلاً غَريزياً لِلغُرورِ والشُّعورِ بِأَنَّه أَفضَلُ مِن الآخَرين. وانبَرَى الثَّعلَبُ مِن بَينِ الجَالِسين وقَالَ مُوَجِّهَاً حَديثَهُ لِسُكّانِ الغَابَةِ:

"يَا أَصدِقَائي .. إنَّ الأَسَدَ يُريدُ أَن يَظَلَّ وَحدَهُ سَيّدِ الغَابَةِ والمُتَحَكِّمَ فِيها وفِينا جَميعًا .. ولِهذَا يَرفُضُ أَن يَكونَ هُناكَ وَاحِدٌ يَحمِلُ لَقَبَ "أَفضَلِ سُكّانِ الغَابَةِ .. وللأَسَفِ الشديدِ أُصيبَت حِكمَتُهُ بِالشَيخوخَةِ..تَماماً كَما أُصيبَ جَسَدُهُ.. وأَتَحَدَّاهُ أن يَستَطيعَ إجَابَةِ السُّؤالِ".

"وَتَبَادَلَ سُكّانُ الغَابَةِ النَظَراتِ والـهَمَساتِ..وتَعَلَّقَت عُيـونُهُم بِالأَسَـدِ بِانتِظـارِ أَن يَنطِـقَ بِـالقَولِ الفَصـلِ الـمُفحِمِ لِلثَّعلَبِ..وتَمَهَّلَ الأَسَدُ ثُمَّ قَالَ:

"هَذا السؤالُ لَيسَ لَهُ إِجَابَةٌ .. فَكُلُّ وَاحِدٍ مِن سُكّانِ الغَابَةِ فيهِ مَيزَةٌ أَو أَكثَرُ ، وأَيضاً فِيهِ عَيبٌ أَو أَكثَرُ. وَكُلُّ وَاحِدٍ يُريدُ أَن يَكونَ الأَفضَلُ سَيُبالِغُ في النَظَرِ إِلى مَيزاتِهِ .. وسَيُبالِغُ أَيضًا في إِنكارِ مَا في الآخَرين مِن مَزايا وسَيُضَخِّمُ عُيوبَ الآخَرين".

"وبِخُبثٍ قَاطَعَ الثَّعلَبُ كَلامَ الأَسَدِ قَائِلاً:

"بَل قُل إِنَّكَ أَنتَ الذي تَنظُرُ إِلى كُلِّ الحَيوانَاتِ الأُخرَى نَظرَةَ احتِقارٍ .. ولا تَرَى في أَيٍّ مِنهُم أَيَّ مَيزَةٍ".

"تَنَهَّدَ الأَسَدُ الحَكيمُ وقَالَ بِلَهجَةٍ هَادِئَةٍ:

"يَا أَخي الثَّعلَب هَذا اتِّهامٌ ظَالِمٌ .. وأَنتَ تَظُنُّ أَنَّكَ أَجدَرُ وَاحِدٍ فِينا بِهذا اللَّقَبِ ، والتَّواضُعُ خُلُقٌ طَيِّبٌ .. ومِن الأَفضَلِ أَن تَكونَ مُتَوَاضِعًا .. وأَن تَترُكَ الآخَرين هُم الذين يَذكُرونَ مَحاسِنَك".

"أَشاحَ الثَّعلَبُ بِوَجهِهِ عَن الأَسَدِ .. فَاستَطرَد الأَسَدُ بِلَهجَةِ النَّاصِحِ الأَمينِ وقَالَ:

"يَا أَخي الثَّعلَب: كُلُّ وَاحِدٍ مِن سُكَّانِ هَذهِ الغَابَةِ إذا رَأى مَيزاتِهِ وحَسب ولَم يَرَ عُيوبَهُ .. ولم يَرَ مَيزاتِ الآخَرين .. وَهوَ عِندئِذٍ سَيَنظُرُ لِلآخَرين نَظرَةَ احتِقارٍ. فَهَل تَتخيَّلُ حَالَنَا ونَحنُ جَميعَاً نَخوضُ هَذا الصِّراعَ ، ثُمَّ إن هَذا حَرامٌ ، لأَنَّنا جَميعًا خَلقُ الله ، وفي كُلٍ مِنَّا مَيزاتٌ وعُيوبٌ .. وَصَدِّقني .. ثَمَرَةُ الكَرَاهِيةِ مُرَّةٌ جِدًا".

وتَوجَّهَ الأَسَدُ بِكلامِهِ نَحوَ سُكَّانِ الغَابَةِ وقَالَ:

"يَا إخوَتي .. إنَّني أَلمَحُ في عُيونِكُم نَظرَةَ أَعرِفُ مَغزَاها .. يَا إخوَتي إنَّ في كُلٍ مِنَّا شَيْء يَنفَرِدُ بِهِ عَن الآخَرين ، فَهُنَاكَ مَثَلاً الأَقوَى .. وهُناكَ الأَكثَرُ رَشاقَةً .. وهُناكَ الأَجمَلُ ، وهُناكَ الأَسرَعُ رَكضًا .. وهُناكَ الأَقدَرُ عَلَى القَفزِ عَالِيًا".

"وعَادَ الأَسَدُ يُوَجِّهُ كَلامَهُ إلى الثَّعلَبِ قَائِلاً:

"صَحيحٌ أَنَّ الذَّكاءَ صِفَةٌ جَميلَةٌ ومُهِمَّةٌ .. لَكِنَّكَ لَستَ الوَحيدَ الذَّكيَّ في الغَابَةِ ، كَما أَنَّ الذَّكاءَ وَحدَهُ لَيسَ كَافيًا لأَن

تَكونَ أَفضَلَ سُكّانِ الغَابَةِ .. فَالقُوّةُ مَيزَةٌ لا تَقِلُّ أَهَميّةً عَن الذكاءِ..والحِكمَةُ رُبَّما تَفوقُ القُوّةَ والذكاءَ مَعًا".

"نَظَرَ الثَّعلَبُ لِلأَسَدِ بِاستِهانَةٍ وقَالَ:

"هَذا كَلامٌ غَيرُ صَحيحٍ .. فَالذكاءُ يُمكِنُ أَن يَهزِمَ القُوّةَ ، ومِن نَاحِيَةِ الجَمالِ..أَنَا أَجمَلُ مِنكُم جَميعًا .. بِفِرائي الجَميلِ وجِسميَ الرَّشيقِ"

.. .. وَتَوجَّهَ الثَّعلَبُ بِكلامِه لِبَقيّةِ سُكّانِ الغَابَةِ مُتَحَدِّيًا:

"عَلَيكُم الاعتِرافُ بِذَلِك".

"وحَدَثَ ما كَانَ يَخشاهُ الأَسَدُ .. فَقَد استَفَزَّ الثَّعلَبُ غُرورَ الآخَرين ، وَكانِت البِدايَةُ أَن رَفرَفَ الصَّقرُ الذي كَانَ جَالِساً عَلَى الأَرضِ لا يَتَكلَّمُ بَل يَرقُبُ هُدوءَ الأَسَدِ وخُبثَ الثَّعلَبِ وحَيرَةَ بَقيةِ الحَاضِرين .. وبدأ الصَقرُ يُثيرُ الغُبارَ بِجَناحَيهِ..ثُمَّ قَالَ في غَضَبٍ:

"أَوقِفوا هَذا الهُراءَ فَوراً!"

"وَدَوَّت صَيحَةُ الصَّقرِ فَسَكَتَ الهَمسُ وتَوقَّفُ الثَّعلَبُ عَن الكَلامِ .. فَلَمَّا تَأَكَّدَ الصَّقرُ أَنَّـهُ أَصبَحَ مَوضِعَ نَظَرِ الجَميعِ قَالَ بَضَجَرٍ شَديدٍ مُحَدِّثًا جَميعَ سُكَانِ الغَابَةِ:

"هَكَذا أَنتُم دَائِمًا لا تَرون إلا مَا على الأَرضِ .. لأَنَّكم لا تَستَطيعون إلا أن تَمشوا أو حتَّى تَركُضوا عَلَيها .. ولَم يُجرِّب أَيٌّ مِنكُم التحليقَ عَالياً بِأَجنِحَةٍ قَويّةٍ".

"وأَدرَكَ الأَسَدُ بِبَصَرِهِ الثَّاقِبِ أَنَّ غَضَبَ الصَّقرِ سيَفتَحُ البابَ لآخَرين لِيفعَلوا مِثلَهُ فَقَال:

"يَا أَخي الصقر .. لا أَحَدَ في الغَابَةِ يُمكِنَّ أَن يُنكِرَ مَكانَتَكَ وفَضلَكَ ومَيزاتِكِ الكَبيرَةِ .. فَأَنتَ مِن أَسرَعِ الكَائِناتِ عَلى الأَرضِ ، لَكِنَّكَ في النهايةِ حتَّى عِندَما تُحَلِّقُ عَاليًا .. بَل عَاليًا جِدًا .. سَوفَ يَكونُ كُلُّ ما تَراهُ عَلى الأَرضِ .. وكُلُّ الفَرائِسِ التي تَقتَنِصُها .. تَقتَنِصُها مِن عَلى الأَرضِ .. والعُشُّ الذي تَعيشُ فيه مَهما كَانَ عَالياً هو في النهايَةِ عَلى شَجَرَةٍ جُذُورُها عَلى الأَرضِ".

"وتَلَعثَمَ الصَّقرُ وقَالَ:

"في الحَقيقَةِ فَإنَّ الطيورَ هِي أَفضَلُ الكَائِناتِ ، كَما أَنَّها أَجمَلُها ، ولا أَظُنُّ أَحَداً مِنكُم يُمكِنُ أَن يُنكِرَ ما لِريشِ الطيورِ مِن بَهَاءٍ ، فَهوَ إمَّا مُتَّصِفٌ بِالجَمالِ الأَخَّاذِ أَو الوَقارِ. وأَنَا بَينَ الطيورِ أَملِكُ القُوَّةَ والجَمَالَ مَعًا ، فَأنا أُحَلِّقُ عاليًا .. وأَنقَضُّ عَلى فَريسَتي بِقُوَّةٍ .. وبِسُرعَةٍ خَاطِفَةٍ قَبلَ أَن تَرَاني. وإلى جَانِبِ الأَجنِحَةِ والمَخَالِبِ لَدَيَّ بَصَرٌ حَادٌّ".

ونَظَرَ الصَّقرُ إلى الحَلقَةِ المُستَديرَةِ مِن سُكَّانِ الغَابة وعَيناهُ مُمتَلِئَتانِ بِالتَّحَدّي والغَضَبِ وصَرَخَ بِعُنفٍ:

"إنَّني لا أَدري .. لا أدري مَا الذي يَجعَلُكُم لا تَعتَرِفون بِأَنَّني أَفضَلُ سُكَّانِ هذه الغَابَةِ ؟"

وتَعَالَت أَصواتُ الحَيواناتِ والطيورِ مُعتَرِضَةً:

"أَنا أَفضَلُ سُكَّانِ الغَابَةِ.

لا بَل أَنا أَفضَلُ سُكَّانِ الغَابَةِ.

لا بَل أَنا أَفضَلُ سُكَّانِ الغَابَةِ.

"وفَجأَةً تَحوَّلَ المَكانُ إلى سَاحَةِ شِجارٍ عَنيفٍ وتَصَاعَدَ الغُبارُ.. واسوَدَّت الشَّاشةُ بِالتَّدريجِ.."

وكَانَ الفَاصِلُ الأَوَّلُ في الفيلمِ.

3

أُضيئَت الأَنوارُ في صَالَةِ العَرضِ الصغيرَةِ وبَدَأَ الحُضورُ في تَبَادُلِ التَعليقَاتِ مُتَشاغِلينَ عَن الإعلاناتِ التي تُعرَضُ في الفَاصِلِ. وكَانَ لِتداعياتِ السّاعَاتِ القَليلَةِ المَاضيَةِ أَثَرٌ في تَذَوُّق حَمَد لِلفيلمِ ، فَشَكَرَ الدكتورة ماري على دَعوَتِها إِياهُ لِمُشَاهَدَتِهِ. وبَدَأَ يَتَأكَّدُ مِن أَنَّ خَيطًا مَا يَربِط بَينَ أَحداثِ هَذهِ الرِّحلَةِ التي تَحوَّلَت إلى نَوعٍ جَديدٍ مِن السافاري هُوَ "**السافاري الثقَافيّ**" ، وَلِكُلِّ مُتعَتُهُ.

أُطفِئَـت الأَنـوارُ مَـرَّة أُخـرَى .. وتَوقَّـفَ جُمهـورُ صَـالَةِ العَرضِ الصغيرةِ عَن الكَلامِ .. وتَركَّزَت أَبصَارَهُم على الشاشَةِ .. واستُؤنِفَ الفيلمُ.

"وَقَـفَ الأَسَـدُ الـحَكيمُ وَقَـالَ مُخَاطِبًـا سُـكّانَ الغَابَـةِ الثائِرين:

"أَرجُـوكُم اِهـدَءوا .. وطَالَمـا أَنَّـكُم تُريـدونَ السَّيرَ وَراءَ الثعلَبِ .. فإنَّـني أَعِـدُكُم جَميعَاً بِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنكُم سَيَأخُذُ حَقَّهُ .. وإذا اختَرتُم وَاحِداً مِنكُم لِيَكونَ أَفضَلَ سُكَانِ الغَابَةِ فَسَيَتِمُّ تَنصِيبُهُ مَلِكًا ، فَاهدَءوا .. لأنَ المُلوكَ لا يَتَشاجَرون"!

"نَجَحَ الأَسَدُ في امتِصاصِ الغَضَبِ واحتِواءِ الثَّورَةِ وبَدَأَ سُكّانُ الغَابَةِ بِالتَدريجِ يَهدَأونَ. سَكَتَ الضجيجُ .. وانسَحَبَت شَيئاً فَشيَئاً مِن عَلَى الوُجوهِ نَظراتُ الغَضَبِ والتَّحَدي .. وشَعرَ الثعلَبُ أَن خُطَّتَهُ نَجَحَت .. فَلاذَ بِالصَّمتِ وَهوَ سَعيدٌ".

"نَظَرَ الأَسَدُ إلى الـمُتنَافِسينَ الـمُتَحَلِّقينَ حَولَـهُ وقَالَ بِنَبرَةٍ هَادِئَةٍ:

"يَا أَبنَائي كُلٌ مَخلوقٍ مَنَحَهُ اللهُ ما يُنَاسِبُهُ مِن الصِفاتِ .. وهَيَّئَهُ لِلدِفاعِ عَن نَفسِهِ .. وكَذَلِكَ لِلحُصولِ عَلَى الرِزقِ ، فَمَن مِنكُم أَجمَلُ مِن الطاووس .. بِريشِهِ المُلَوَّنِ .. وَذَيلِهِ الرائِعِ ؟ لَكِنَّهُ مَخلوقٌ وَديعٌ لا يَقتُلُ .. ولا يَستَطيعُ الطَيرانَ ولا الرَكضَ السريعَ ، وأَيُّكُم أَقوى مِن الفيلِ ؟ إِنَّهُ يَستطيعُ بِخُرطُومِهِ أَن يَقتُلَ أَيَّ وَاحِدٍ مِن سُكَّانِ الغَابَةَ ، لَكِنَّه لا يَستَطيعُ الركضَ السريعَ مِثلَ حَيوانَاتٍ كَثيرة تَصغُرُهُ حَجمًا."

"وشَعرَ الأَسَدُ أَنَّه استَعَادَ لِسُكَّانِ الغَابَةِ كَثيرًا مِن هُدوئِهِم .. والتَفَتَ الأَسَد إلى الثعلب وقَالَ:

"أَيُّها الثعلَبُ .. إِنَّك مَغرورٌ وماكر .. وبِهذا الغُرورِ وهذا المَكرِ تَسَبَّبتَ في تَعكيرِ صَفوِ حَياتِنَا الهَادِئَةِ ، وسَأُعَلِّمُكَ دَرسًا لَن تَنسَاهُ"

"وكَانَت نَبرَةُ الأَسَدِ تَجمَعُ الهُدوءَ والحَسَمَ".

"ونَظَرَ الأَرنَبُ إلى الأَسَدِ وقَالَ:

"أَيُّها الأَسَدُ الحَكيمُ .. لَقَد جِئتُ إلى هُنا لِرَغبَتي في أَن أَسمَع قِصَّةٍ مِن القِصَصَ الجَميلَةِ التي تُسَلّينا .. وأَنا لا يُهِّمني

هَذا الكَلامُ الذي يَقُولُهُ الثعلَبُ .. فَهَل يُمكِنُكَ أَيُّها الأَسَدُ الحَكيمُ أَن تَحكي لَنَا قِصَّةً مِن قِصَصِكِ الجَميلَةِ فَقَالَ الأَسَد وقَد بَدا عَلَيهِ الضيقُ والحُزنُ:

"لا .. لا بَل سَتنتَهي جَلسَةُ السَّمرِ هَذه الآنَ .. ونَعودُ غَداً لِنَلتَقيَ في الصبَاحِ البَاكِرِ".

"وحَزِنَ الأَرنَبُ .. وتَبَادَلَ سُكَّانِ الغَابَةِ نَظَراتٍ تَجمَعُ الدهشَةَ والفُضولَ .. الدهشَةُ مِن قَرارِ الأَسَدِ تَأجيلَ حَسمِ المُنافَسَة لِليومِ التالي ، والفُضولُ بَسبَبِ التهديدِ الذي أَطلَقَهُ الأسد .. وتَهَامَسَ بَعضُهُم وبَدأوا في الإنصِرافِ ، بَينما الأَسَدُ بَاقٍ في مَكانِهِ محتلا قلب المَشهَدِ".

"رَفَعَ الأَسَدُ عَينيهِ لِلسماءِ الصافيَةِ .. وتَجاهَلَ هَمسَاتِ الحَيواناتِ وفُضُولَهم .. وتَمتَم بَصوتٍ خَفيضٍ:

"هَذا الثعلبُ يَحتاجُ دَرسًا .. ويَجِبُ أَن يَتَعلَّمَ .. وفي الصباحِ .. حتى لا تَتَحوَّلَ الغَلطَةُ التي ارتَكَبَها إلى حَريقٍ كَبيرٍ يَأكُلُ سَكينَةَ غَابَتِنا".

"أجالَ الأَسَدُ نَظَرَهُ في الغَابَةِ فَرَأى جَبَلاً كَبيرًا يَعرِفُهُ جَيدًا .. إنَّهُ "جَبَلُ الدهشَةِ" .. بِارتِفاعِهِ الشاهِقِ وَلَونِه الأَسودِ الفَاحِم .. إنَّهُ في مَكانِهِ هذا .. تُولَدُ أَجيالٌ مِن سُكّانِ الغَابَةِ وتَفنى وهوَ بَاقٍ في مَكَانِهِ .. فَلو نَطَقَ لَرُبَّما أَفحَمَ كُلَّ المَغرورين الذين لا يَرونَ إلا مَيزَاتِهم".

"ونَظَرَ الأَسَدُ إلى قِمةِ الجَبَلِ حَيثُ يُشَكِّلُ السحَابُ مَا يُشبهُ العَمامَةَ حَولَ رَأسِ شَيخٍ كَبيرٍ وَقورٍ وقَالَ:

"سُبحَانَ الله..كَم هُو عَظيمٌ خَلقُ اللهِ ، فَهَذا الجَبَلُ الضخمُ الشاهِقُ الثابِتُ في مَكَانِهِ الذي وَصَفَهُ اللهُ بِأَنَّهُ مِن الرَواسي .. إنَّهُ لا يَغتَرُّ لا بِارتِفَاعِهِ الشاهِقِ ولا صَلابَتِهِ ولا حَجمِهِ ولا أَلوَانِهِ".

وكَانَ سُكّانُ الغَابَةِ يَهابونَ هذا الجَبَلَ .. فهوَ في الليلِ يَبدو مُوحِشًا .. وعِندما تَجتَمِعُ ظُلمَةِ الليلِ مَعَ سُمرَتِهِ التي تُشبِهُ لَونَ الغُرابِ يُصبِحُ مَنظَرُهُ مُخيفًا ..وعِندَما يَسقُطُ المَطَرُ عَلَيهِ غَزيراً هَادِرًا .. حَامِلاً مَعَهُ مَا يَتَفَتَّتُ مِن صُخُورِهِ فَإِنَّهُم يُسرِعونَ لِلاختِباءِ خَوفًا مِن غَضَبِهِ"..

"وبِسَببِ اِنحِدارِهِ الفُجائيّ كَانَ من الـمُستَحيلِ على الحَيوانَاتِ تَسَلُّقُهُ .. ولأَنَّهُ صَخريٌّ لا تَنبُتُ عَلَى تُربَتِهِ الأَشجَارُ .. فَلَم يَستَطِع أَيُّ طَائِرٍ أَن يَبنيَ عُشّاً عَلَيهِ ، وبَقيَ هَكَذا جَزيرَةً سَوداءَ فَاحِمةً وسطَ عَالَمٍ فَسيحٍ أَخضَرٍ".

"ولِعَجزِهِم عَن تَفسيرِ هَذهِ الحَقائِقِ أَصبَحوا يُسَمُّونَهُ "جَبَـلَ الدهشَـةِ" .. وسَـاعَدَ عَلَـى رَواجِ هَـذا الإِسـمِ الـمَنَظَرُ الـمُخيفُ لِلبَـرقِ فـي أَوقـاتِ الأَمطـارِ الرعديّـةِ وَهـوَ يَظهـرُ ويَختَفي..وكَأَنَّها ضَربَاتُ سِياطٍ قَويّةٌ تَنزِلُ عَلَيه فَتَحَطِّمُ صُخُورَهُ وتَحمِلُها إلى الوادي فَتُدَمِّر كُلَّ ما في طَرِيقِها".

"أَمَّـا الظِـلالُ التـي تَتَكَـوّنُ عَلَـى سَـطَحِهِ فـي الليـالي الـمُقمِرَةِ فَتَتغَيَّر أَشكَالُها مِن آنٍ لآخَر بِسَببِ تَفَتُّتِ الصخورِ .. فَيَبـدو كَمَـا لَـو كَـانَ كَائِنَـاً حَيَـاً تَتَغَيَّـرُ مَلامِحُـهُ وتَتَبـدَّلُ حُفَـرُهُ ونُتوءاتُـهُ وأَخاديـدُهُ .. فهَـل يَسـتَحِقُ إلا أَن يُسَـمّى: "جَبَـلَ الدَهشَةِ".

"قَضَى سُكّانُ الغَابَةِ لَيلَتَهُم يَنتَظِرون طُلوعَ الفَجرِ وهُم في شَوقٍ لِمَعرِفَةِ الدرسِ الذي سَيُلَقِّنُهُ الأَسَدُ الحَكيمُ لِلثَعلبِ المَغرورِ".

"ومُبَكِّراً خَرَجَ الأَرنَبُ مِن جُحرِهِ قَاصِداً الفيلَ .. وقَالَ لَهُ: "تُرَى مَا الدرسُ الذي سَيُلَقِّنُهُ الأَسَدُ لِلثعَلبِ ؟ فَقَالَ الفيلُ:

"لا أدري لَكِنَّه حَكيمُنَا الذي نَلجَأُ إليهِ عِنَدَما نَحتاجُ النصيحَةَ".

"واستَمَرَ الأَرنَبُ في فُضُولِهِ فَقَالَ:

"تُرَى هَل يُصارِعُه الأَسَدُ حتَّى يُثبِتَ لَهُ أَنَّهُ لَيسَ أَفضَلَ سُكّانِ الغَابَةِ ؟"

فَقَالَ الفيلُ:

"لا أَظُنُّ ، فَالأَسَدُ لَم يَعُد يَقوى عَلى مِثلِ هَذه الأَشيَاءِ ، وهو عَلَّمَنا أَنَّ الحِكمَةَ هي أَثمَنُ مَا يَملِكُ ، والحَكيمُ لا يَلجَأُ لِلقُوَّةِ لإِقنَاعِ الآخَرين".

"وأثناءِ كَلامِهِما لَمَحَ الأَرنَبُ الغَزالَ..فَأرادَ الأَرنَبُ أَن يَبحَثَ عِندَهُ عَن تَوقُّعٍ يُرضي فُضُولَهُ ، فَقَالَ:

"أَيُّها الغَزالُ ، ألا تَعرِفُ شَيئًا عَن الدرسِ الذي سَيُلَقِّنُهُ الأسد لِلثعَلب ؟"

فَقَالَ الغَزالُ:

"لا ، وكَيفَ لي أَن أَعرِفَ .. لَكِنَّني مُتَأَكِّدٌ مِن أَنَّهُ سَيُلَقِّنُهُ دَرسًا قَاسيًا".

"وبَدَت عَلى الغَزالِ عَلاماتُ الغُرورِ فَقَالَ:

"رُبَّما جَعَلَهُ يَتسَابَقُ مَعي ، فَأَنَا بِلا شَكٍ أَركُضُ أَسرَعَ مِنهُ .. فَإذا هَزَمتُهُ عَرَفَ أَنَّهُ لَيسَ الأَفضَلَ .. وشُفِيَ مِن غُرورِهِ!".

"أَشرَقَ الصبَاحُ واكتَسَت الغَابَةِ بَالبَهاءِ والنُضرَةِ الزاهيَةِ..وتَقَاطَرَ النَدَى مِن عَلَى أَوراقِ أَشجَارِها .. وزَقزَقَت العَصافيرُ مُعلِنَةً مِيلادَ يَومٍ جَديدٍ. وخَرَجَ سُكّانُ الغَابَةِ كُلٌّ مِن مَسكَنِهِ .. لَكِن هَذه المَرَّةَ إلى حَيثُ يَجلِسون لِلسمرِ .. فُالفضُولُ يَفتَرِسُهُم. وجَلَسَ الجَميعُ يَنتَظِرون الأَسَدَ الحَكيمَ.

وبَعـدَ قَليـلٍ خَـرَجَ الأَسَـدُ مِـن عَرِينِـهِ وسـارَ مُـتَمَهِّلاً والكُـلُّ يَتَهامَسون ويَتَرَقَّبون".

"جَلَـسَ الأَسَـدُ .. وجَلَـسَ البَـاقون مُتَحَلِّقـين حَولَـهُ .. فَألقى التحيّةَ عَلَيهِم ثُمَّ قَالَ:

"أينَ الثعلَبُ ؟"

فَخَرَجَ الثعلَبُ مِن بَين الحَيوانَاتِ ووَقَفَ في مُنتَصَفِ الدائِرةِ في مُواجَهَةِ الأَسَدِ تَماماً فَسَأَلَهُ الأَسَدُ:

"أَمِا زِلتَ تَرىَ نَفسَكَ أَفضَلَ سُكّانِ الغَابَةِ ؟"

فَقَالَ الثَعلَبُ مُتَحَدِّيًا:

"طَبعًا .. أَنا أَفضَلُ سُكّانِ الغَابَةِ .. ويُمكِنُني أَن أَحُلَ أَيَّ لُغزٍ تُلقِيهِ عَلَيَّ لأَنَّني أَذكى سُكّانِ الغَابَة وسَوفَ أُثبِت لَكَ ، بل لَكُم جَميعَاً حَقيقةَ أَنَّـني أَفضَلُكُم جَميعَاً. وأَنَا مُتَأَكِّدٌ مِن أَنَّكَ قَضيتَ الليلَ كُلَّهُ تُعِدُ لي لُغزاً تَظُنُّ أَنَّهُ سَيُشعِرُني بِالعَجزِ .. وأَنا جَاهِزٌ".

"ابتَسَمَ الأَسَدَ في هُدوءٍ وثِقَةٍ وقَالَ:

"لا أيُّها الثعلَبُ الذكيُّ ، لَن يَكونَ هُناكَ ألغازٌ..ولَن أدعُوَك إلى مُصَارَعَةٍ .. ولَن أدعُوَكَ إلى مُسابَقَةِ حَيوانٍ سَريعِ الركضِ".

"وأثَّرت كَلِماتُ الأسَدِ الهَادِئَةِ في الثعلَبَ فَتَبَدَّدَ شَيءٌ مِن إحسَاسِهِ المُفرط بِالثِقَةِ".

"وانتَقَلَتَ حَيرَةُ الثعلَبِ إلى سُكانِ الغَابَةِ وأخَذوا جَميعَاً يَتَلَفَّتون وَيَنظُرُ بَعضُهُم إلى بَعضٍ في صَمتٍ. وبَعدَ قَليلٍ بَدأوا يَتَهَامَسون. وقَد فَاجَأَهُم كَلامُ الأسَدِ وحَيَّرَهُم صَمتُهُ المُتَعَمَّدُ وهوَ يَتَصَفَّح وُجوهَهَم بِهُدوءٍ"..

"وبَعدَ صَمتٍ تَكلَّمَ الأسَدُ بِلَهجَتِهِ الحَاسِمَةَ بِعبَارَةٍ أسكَتَتهُم جَميعًا:

"أُريدُكُم أن تَنصَرِفوا جَميعًا .. ولا يَبقى إلا الثعلَبُ والصقرُ والفيلُ ، وسنَلتَقي هُنا في الليل جميعًا!".

"تَحوَّلَت الحَيرَةُ إلى إحسَاسٍ بِالإثَارَةِ الغُموضِ الشديدين .. ولَم يَكُن أَمَامَ سُكَانِ الغَابةِ إلا الطاعةُ. وتَفرَّقوا مُتثَاقِلين".

وأَظلَمَت الشاشة بِالتَدريج.

4

كَـانَ الفاصِـلُ الثـاني ، فُأضـيئَت الأَنـوارُ وإذا بـماري وحَمَد يَلتَفِتان في التَوقيتِ نَفسِهِ ويَتَواجَهان .. وعَلَى وجَهيهِما علامات الفضول وقَالا بِصوتٍ واحِدٍ تَقريبًا:

"تُرَى ما الذي يخبئه الأسد؟"

وضَحِكَا.

كَانَا في حَاجَةٍ إِلى شَرَابٍ دَافِئٍ .. فَأَسرعَا مَعًا لإِحضارِ كُوبَين مِن شَرابِ الكَاكَاوِ .. وعَادَ لِمقعَدَيهِما في صَالَةِ العَرضِ مَعَ انتِهاءِ الفَاصِلِ بِالضبَطِ .. وأُطفِئَت الأَنوارُ .. وعَادَت العُيونُ لِتَتَسَمَّرَ أَمامَ الشاشةِ الفِضيةِ.

"تَجوَّلَت الكاميرا في سَاحَةِ السَمَرِ بِبُطءٍ لتَصِلِ بِالمُشاهِدين إلى أقصَى دَرجاتِ الإثارَةِ والتَشويقِ .. وقَبلَ أن تَصِلَ إلى حَيثُ الأَسَدُ .. استَعرَضَت مَشَاهِد بَعضِ سُكّانِ الغَابَةِ يُحاوِلون استِراقَ السمعِ .. ما بَينَ مُختَفٍ وراءَ صَخرَةٍ .. أو عَلَى غُصنِ شَجَرَةٍ .. حتَّى أَصبَحَ الأَسَدُ في قَلبِ المَشهَدِ".

"اقتَرَبَ الأَسَدُ مِن الفيلِ والثعلَبِ والصقرِ وقَالَ:

"الآن جَاءَ مَوعِدُ الدرسِ".

"قَالَ الصقرُ:

"وما عَلاقَتي أَنا بِهذا الدرسِ ؟"

فَقَالَ الأَسَدُ:

"ستَحمِلُ هَذا الثعلَبَ بَين مَخالِبِكَ .. وتُحَلِّقُ بِهِ عَالِياً حتَّى تَصِلَ إلى قِمّةِ جَبلِ الدهشَةِ فَتضَعَهُ هُناك .. ثُمَّ تعود".

"ونَظَرَ الثعلَبُ إلى الأَسَدِ في رُعبٍ .. ومَرَّت أَمَامَ عَينيهِ صُورةُ الجَبَلِ والبَرقُ والرَعدُ يُزمجِران عِندَ رَأسِهِ .. وتَذَكَّرَ سُيولَ المَاءِ الهَادِرِ تَنهَمِرُ مِن عَليهِ .. وقَالَ بِصوتٍ مُتقَطِعٍ:

"ولَكِن .. ولَكِن .. لِماذا يَحمِلُني إلى الجَبَلِ ؟".

"قَالَ الأَسَدُ:

"سَتَعرِفُ عِندَما تَصعَدُ".

"وهُنا تَدَخَّلَ الفيلُ الذي لَم يَكُن أَقَلَّ حَيرةً مِن الثعلَبِ والصقرِ وقَالَ:

"أَنا لا أَفهَمُ شَيئًا ، وما دَخلي أَنا في هَذا الدرسِ الغريبِ ؟".

"فنَظَرَ إليهِ الأَسَدُ في ثِقَةٍ وهُدوءٍ وقَالَ:

"سَتَعرِفُ عِندمَا يَعودُ الثعلَبُ".

"حَرَّك الصقرُ جَناحَيهِ بِقوَّةٍ مُثيراً الغُبارَ .. ودارَ في الهواءِ دَورَتين قَبلَ أَن يَنقَضَّ على الثعلَبِ مُمسِكًا إيَّاهُ بِمخَالِبه القَويَّةَ".

"طَارَ الصقر عَاليًا مُمسِكا الثعلَبَ بِمخَالِبِهِ .. والثعلَبُ يَصرُخُ ويَرتَعِدُ مِن الخَوفِ .. حتَّى أَنَّه لَم يُفكِّر مُجرَّدَ التفكيرِ في

التَخَلُّصِ من مَخالِبه عَلَى هذا الارتِفاعِ الكَبيرِ .. خَوفًا مِن أن يَسقُطَ فَتَتَحطَّمَ عِظامُهُ".

"وفُوجِئَ الصقرُ بِخوَفِ الثعلَبِ واستِسلامِه فَقَالَ لَهُ سَاخِرًا:

"أيُّها الثعلَبُ هَل يَليقُ بِمَلِكِ الغَابَةِ أن يَخافَ ؟ وأين غُرورُك وفَخرُكَ بِنفسِك ؟"

"وَصَلَ الصقرُ إلى قِمَّةِ جَبَلِ الدهشَةِ فَوضَعَ الثعلَبَ عَلَيَها وحَلَقَ عَالِيًا .. والثعلَبُ يُنادِيهِ مُتَوسِّلاً ألا يَترُكَهُ عَلَى هَذا الجَبَلِ وَحيدًا. لَكِنَ الصقرَ طَارَ سَريعًا لِيَعودَ إلى الأرض ويُبلِغَ الأَسَدَ بِإتمامِ المُهِمَّةِ".

"عَادَ الصقر إلى الأَرضِ وقَالَ لِلأَسَدِ:

"لَقَد فَعَلتُ ما أَمَرتَني بِهِ"

فَقَالَ لَهُ الأَسَدُ:

"حَسَنَاً ، لَكِنَّ دَورَكَ لَم يَنتَهِ بَعد".

قَالَ الصقرُ وقد شَعرَ بِأَنَّ الدرسَ مُثيرٌ:

"فَبِماذا تَأمُرُني ؟"

فَقالَ الأَسَدُ:

"أَنتَ مَعروفٌ بِبَصَرِكَ الحَادِّ .. وأَنَا لا أَرى الثعلَبَ مِن مَكاني هَذا ، فَهَل تَراهُ أَنت ؟"

"حَدَّقَ الصقرُ في اتِّجَاهِ قِمَّةِ الجَبَلِ وقَالَ:

"نَعم أَراهُ ، إِنَّهُ عَلى قِمَّةِ الجَبَل".

فَقَالَ الأَسَدُ:

"فَفي أَيِّ حَجمٍ تَرَاهُ ؟".

فَقَالَ الصقرُ:

"أَراهُ صَغيراً جِداً بِالنِسبَةِ لِحَجمِهِ الحَقيقي".

"نَظَرَ الفيلُ إِلى الأَسَدِ في حَيرَةٍ وقَالَ:

"لَكِنَّني حتَّى الآنَ لا أَفهَمُ .. مَا دَخلي أَنا بِهذا الدرسِ ؟

فَقَالَ الأَسَدُ:

"أنتَ أيُّها الفيلُ أكبَرُ سُكّانِ الغَابَةِ حَجمًا .. والثعلَبُ أصغَرُ مِنكَ بِكَثيرٍ .. لَكِنَّهُ الآنَ يَراكَ صَغيراً مِن عَلى قِمَّةِ الجَبَلِ .. بالضَبطِ كَمَا يَرَى الصقرُ الثعلَبَ .. وستَرى بِنَفسِك".

"التَفَت الأَسَدُ إلى الصقرِ وقَالَ:

"أُريدُكَ أَن تَذهَبَ إلى الثعلَبِ وتَسأَلَهُ عَن حَجمِ هَذا الفيلِ كَما يَراهُ مِن عِلَى قِمَّةِ الجَبَلِ.

فَقَالَ الصقرُ:

"فَهَل أَحمِلُهُ إلى هُنا مَرَّةً أُخرَى بَعدَ أَن يُجيبَ عَن السؤالِ ؟"

وأَطرَقَ الأَسَدُ لِلحَظَةٍ ثُمَّ قَالَ:

"لا .. لا .. دَعهُ هُناك .. فَهو في حَاجَةٍ إلى أَن يَترُكَ الدرسُ أَثَرًا في نَفسِهِ".

"وحَلّقَ الصقرُ مُسرِعًا واتَّجهَ إلى قِمَّةِ الجَبَلِ ومَا إن رآهُ الثعلَبُ حتَّى طَلَبَ مِنهُ مُتَوسِّلاً أَن يُعيدَهُ إلى الأَرضِ مِن هَذا الجَبَلِ المُوحِشِ البارِدِ ، فَقَالَ لَهُ الصقرُ:

"لَيس قَبلَ أَن يَأمُرَني الأَسَدُ بِذَلِك ؟".

فَقَالَ الثعلَبُ:

"فَلِماذا جِئتَ إذن ؟"

"فَقَالَ الصقرُ:

"جِئتُ لأَنقُلَ لَكَ طَلَبًا مِن الأَسَدِ".

فَقَالَ الثعلَبُ وقَد شَلَّ القَلَقُ تَفكيرَهُ:

"ومَا هُو ؟"

قَالَ الصقرُ:

"رَكِّز نَظَرَكَ جَيدًا تِجاهَ سَاحةِ السمَرِ التي نَلتَقي فيها كُلَّ مَساءٍ".

وحَدَّقَ الثعلَبُ ثُمَّ قال:

"نَعَم..نَعَم أراها".

فَقَالَ الصقر:

"فَهَل ترى الفيل الواقِفَ فيها ؟".

"فَقَالَ الثعلَبُ بَعدَ قَليلٍ مِن التحديقِ:

"نَعم .. يَاه .. هَذا شَيءٌ غَريبٌ .. إنَّهُ صَغيرٌ ، صَغيرٌ جِدًا".

وقَبلَ أَن يُكمِلَ الثعلَبُ جَملَتَهُ .. وبَينما الدهشَةُ مُستَوليَةٌ عَلَيهِ ، حَلَّقَ الصقرُ سَريعًا فانتَبَهَ الثعلَبُ وانطَلَقَ يَصرُخُ:

"لا .. أرجوك .. لا تَترُكني هُنا مَرَّةً أُخرَى ، فأَيُّ مَيزاتٍ لا تُغني عَن التعاوُنِ مَعَ الآخَرين .. أَيُّها الصقرُ ، حتَّى أَفضَلُ الحَيوانَاتِ يَحتاجُ لِلآخَرين ، وأَعِدُكَ عِندَ اختياري مَلِكًا لِلغَابَةِ أَن ...."

"وتَلاشَى الصقرُ بَعيدًا .. ثُمَّ اختفى".

"حَطَّ الصقرُ في سَاحةِ السمرِ .. وكَانَ بَعدَ عَودِتِهِ قَد بَدَأَ يَفهَمُ شَيئاً فَشَيئاً مَغزَى الدرس الذي أَرادَ الأَسدُ تَلقينَهُ لِلثعلَبِ ، وقَالَ لِلأَسَدِ:

"يَقولُ الثعلَبُ إنَّه يَرَى الفيلَ صَغيرًا جِدًا مِن عَلَى قِمَّةِ الجَبَلِ"

وزَمجَرَ الفيلُ غَاضِبًا وبَدَأَ يَرفَعُ خُرطُومَهُ ويَرفَعُ صَوتَهُ ويَدُكُّ الأَرضَ بَأقدامِهِ الثقيلَةِ ويَقولُ:

"الكَاذِبُ..كيف يَقولُ هَذا".

"ونَظَرَ الأَسَدُ لِلفيل وقَالَ بِحَسمٍ:

"كَفَى .. لا داعيَ لِلغَضَبِ .. سَتَفهَمُ كُلَّ شَيءٍ عِندمَا يَأتي الصقرُ بِالثعلَبِ".

هَدَأَ الفِيلُ والتَفتَ الأَسَدُ لِلصقرِ وقَالَ:

"والآنَ ، وَصَلنَا إلى الخُطوَةِ الأَخيرَةِ .. أُريدُكَ أَن تَصعَدَ قَبلَ أن يَحِلَّ الظلامُ إلى قِمَّةِ الجَبَل وتُعيدَ الثعلب".

"وقَبلَ حُلولِ الليلِ حَلَّقَ الصقرُ عَاليًا .. وكَانَ القَمَرُ مُكتَمِلاً يُرسِلُ أَشِعَتَهُ.. وسَاحَةُ السمرِ مُتَأَهِّبَةٌ لِجلسَةٍ طَالَ انتِظارُها. وقَبلَ أَن يَهبِطَ الصقرُ عَلَى الأَرضِ وبَين مَخَالِبِهِ الثعلَبُ كَانَ سُكّانُ الغَابَةِ يَجلِسونَ في دائِرَةٍ .. وقَد تَمَلَّكَ

الفُضولُ مِنهُم جَميعاً. فَقَد نَجَحَ الأَسَدُ في أَن يَجعَلَهُم جَميعًا في حَالَةِ استِثارةٍ تَامَّةٍ ، وهو شَرطٌ مُهِمٌ مِن شُروطِ بُلُوغِ الدرسِ أَقصى دَرَجاتِ التَأثيرِ في جَميعِ الأَطرافِ".

"هَبَطَ الصقرُ وَسطَ الدائِرَةِ .. ووَضَعَ الثعلَبِ مِن بَين مَخَالِبِهِ .. وقد بَدا عَلَيه الإرهاقُ والتوتُرُ الشديدين وذَهبُ غُرورُهُ وزَهوُهُ ، لَيسَ فَقَط بِسَبَبِ رِحلَتِهِ المُرهِقَةِ إِلى الجَبَلِ وما أَصَابَهُ مِن فَزَعٍ وهوَ بَين مَخالِبِ الصقرِ .. وما اعتَصَرَهُ مِن خَوفٍ وهوَ عَلَى قِمَّةِ الجَبلِ وحيدًا".

"نَظَرَ الثعلبُ إِلى الفيلِ وكَأَنَّهُ يَراهُ لِلمرَّةِ الأُولى وتَذَكَّرَ حَجمَهُ كما يَبدو مِن عَلى الجَبَلِ .. واعتَرَتهُ الدهشة. وقَبلَ أَن تَتَبَدَّدَ دَهشتُهُ بَاغَتَهُ سؤالُ الأسد للصقرِ:

"قُل لي أَيُّها الصقرُ .. بَعدَ أَن حَملَتَ الثعلب إِلى قِمَّةِ الجَبَلِ وعُدتَ ، كَيفَ كَانَ حَجمُ الثعلَبِ عِندَما رَأيتَهُ بِبَصَرِكَ الحَادَّ مِن هُنا ؟"

فَقَالَ الصقرُ:

"كَانَ حَجمُهُ صَغيرًا جِدًا .. أَصغَرَ مِن أَرنبٍ".

"التَفتَ الأَسَدً إلى الثعلَبِ وقال:

"وأَنـتَ أَيُّـها الثعلَـبُ ، أَتُنكِـرُ أَنَّ الفيـلَ أَكبـرُ سُكّانِ الغَابَة حَجمًا ؟"

"فَقَالَ الثعلَبُ:

"لا .. طَبَعًا .. لا أُنكِرُ".

فَقَالَ الأَسَدُ:

"فَكيفَ رَأيتَهُ وأَنت على قِمَّةِ الجَبَلِ" ؟

"تَرَدَّدَ الثعلَـبُ قَليلاً قَبـلَ أَن يُجيـبَ .. وهـو لا يَـدري مَغـزَى الرحلَـةِ ولا مَعنـى السـؤالِ. وكَـانَ الثعلَـبُ الـذي وَقَـفَ بِمُنتَهى الغُرورِ فَخوراً بِأَنَّه أذكى حَيواناتِ الغَابَةِ غَيرَ قَادِرٍ عَلى فَهمِ ما يُريدُهُ الأَسَدُ ، لَقَد نَجَحَ الأَسَدُ في تَحطيمِ غُرورِهِ!!"

"قَالَ الثعلَبُ بصوتٍ مَهزومٍ:

"رَأيتُهُ صَغيراً جِدًا..أَصغَرَ مِن الحِمارِ الوَحشيّ".

"قَفَزَ الأرنَبُ مُتَسَرِّعًا وقال:

"ما هَذا؟ هل هذا الجَبَلُ يُضعِفُ البَصرَ ويَجعَلُ مَن يَصعَدُ عَليهِ يَرَى الأشياءَ صغيرةً؟ هذا جَبَلٌ عَجيبٌ!".

"ضَحِكَ الحاضِرون وكانَت أسئِلَةُ الأَسَدِ مُحيِّرَةً للجَميعِ ، ومُحبِطَةً للثعلَبِ الذي تَمتَم حَزينًا:

"الأَسَدُ مَعَهُ حَقٌّ .. لو كُنتُ أفضَلَ سُكّانِ الغَابَةِ لَعَرَفتُ ما الذي يُريدُه الأسَدُ بِهذا الدرسِ".

"سَكَتَ الأَسَد وجَالَ بِبَصَرِهِ في الجالسين وقَالَ:

"الآنَ كُلُّكُم تُريدون مَعرِفَة الدرسِ الذي تَلَقَّاهُ الثعلَبُ .. حَسَنَاً سَأقولُ لَكُم:

"الثعلَبُ يَعلَمُ أنَّ الفيلَ أَكبَرُ سُكّانِ الغَابَةِ حَجمًا".

قَالَ سُكّانُ الغَابَةِ:

"نَعَم".

قَالَ الأَسَدُ:

"لَكِنَّه عِندَما صَعَدَ إلى قِمَّةِ الجَبَلِ رآهُ صَغيرًا".

ودُهِشَ سُكّانُ الغَابَةِ وقَالوا:

"نَعَم".

"قَالَ الأَسَدُ:

"والصقرُ رَغمَ ما يَتمتَّعُ بِهِ مِن بَصَرٍ حَادٍّ .. رَأى الثعلَبَ وهَو عَلى قِمَّةِ الجَبَلِ صَغيراً بَل صَغيراً جِدًا .. رُبَّما أَصغَر مِن أَرنَب".

"وقَهقَهَ الحاضِرون .. فَقَالَ الأَسدُ:

"لا تَعجَبوا .. فَهذهِ هي الحَقيقةُ .. ورُبَّما لَو لَم يَكُن الصقرُ حَادَّ البَصَرِ لَمَا رَآهُ عَلى الإطلاقِ".

"وأَدرَكَ سُكّانُ الغَابَةِ أَن الأَمرَ يَحتاجُ إِلى تَفسيرٍ فتَوَقَفوا عَن الهَمسِ. وهُنا تَكَلَّمَ الأَسَدُ بِلَهجَةٍ هَادِئَةٍ مُوجِّهَاً حَديثَهُ إِلى الجَميعِ وقَالَ:

"الدرسُ لَيسَ لِلثعلَبِ وَحدَهُ بَل لَنا جَميعًا..فَالمَثَلُ يَقُولُ:

"المَغرورُ كَالواقِفِ عَلَى جَبَلٍ .. يَرى الناسَ صِغارًا ويَرونَهُ صَغيرًا".

"وأَطرَقَ الثعلَبُ .. وزَالَ عَنهُ إحسَاسَه بِالزَهوِ .. وزالت عَـن الفيـلِ والصـقرِ الرغبـةُ في التحدي للفـوزِ بِلَقَـبِ "أَفضَـلِ سُكّانِ الغَابَةِ"..

"وعَادَ الهُدوءُ إلى الغَابَةِ .. وانصَرَفَ سُكّانُها في هُدوءٍ .. وعَادَ الأَسَدُ إلى عَرينِهِ لَينامَ في سَكينةٍ".

وظَهرَت كَلِمةُ "**النِهايةِ**" على شاشةِ العَرضِ ، فانصَرَف حَمَـد ومـاري مِـن صـالةِ العَـرضِ دونَ تَعليـقٍ .. فقَـد كَـانَ مـا شَاهَدَاهُ أَوضَحَ من أَن يَحتاجَ إلى تَعليقٍ.

5

عَادَ حَمَد إلى غُرفَتِهِ وبَحثَ عَن الوَرَقَةِ التي كَانَ يَنوي تَسجيلَ يومياتِ الرحلة فيها .. ثُمَّ كَتَبَ:

"جِئتُ إلى هُنا مَعَ عَددٍ مِن زُملاءِ الدِراسةِ .. وها أنا أَستَعِدُ لِلعودةِ بِثَروة مِن الأَصدِقاءِ:

"الأَسَدُ الحكيمُ"

"جَبَلُ الدهشةِ"

"بَل حتَّى الثعلَبُ المَكَّار"

"وطَبعَاً قَبلَ هؤلاء:

"الدكتورة ماري ماك آرثر"

"الدكتور آدم مرسال"

"مُحمَّد خليفة"

"ولا أدري .. هَل يَجوزُ لي أن أُضيفَ إليهِم اسمَ الدكتور جون بيري تومسون .. لَقَد كَانَ هذا الغَائِبَ الحَاضِرَ سَبَبَاً في هذه التجربَةِ .. دُونَ أَراهُ .. بَل إنَّني سَأُغادرُ نيروبي دُونَ أَن أَعرف شيئًا عن مَصيرِهِ .. لَقَد كَانَ "جسرًا" عَبَرتُهُ لأَدخُلَ عَالَمًا جَديدًا مُدهِشًا.

"دُونَ مُقَدِّماتٍ"

"ولَكِن هذه المَرَّة دُونَ أن يُثيرُ هذا التَعبيرُ أَيَّ سُخريةٍ".

وَوَضَعَ حَمَد الأَوراقَ والقَلَمَ عَلى الكومود المُجاوِرِ لِلفراشِ ورَاحَ في نَومٍ عَميقٍ.

تَمَّت

سيرة ذاتية .... ممدوح الشيخ

** كاتب مقال بجريدة المستقبل (اللبنانية)، جريدة عمان (العمانية)، جريدة الحياة (اللندنية)، مجلة المجلة (اللندنية).

** أعدَّ وقدَّم برنامج "ساعة من القاهرة" – قناة الاتجاه (العراق) – مباشر – (2011 – 2013).

** ** أعدَّ وقدَّم برنامج "إسلاميون" – قناة فلسطين اليوم (لبنان) – مسجل – (2013 – 2015).

أولاً: ترجمات في معاجم وموسوعات

** ترجمة في الطبعة الأولى من: "معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين". (مؤسسة البابطين – الكويت).

** ترجمة في الطبعة الأولى من: "معجم أدباء مصر" (الهيئة العامة لقصور الثقافة – مصر).

** ترجمة في الطبعة الأولى من: "الموسوعة الكبرى للشعراء العرب المعاصرين: 1956 – 2006" – إعداد وتقديم: فاطمة بوهراكة – المغرب – 2009 – برعاية الشيخة أسماء بنت صقر القاسمي.

** ترجمة في الطبعة الأولى من: "معجم الأدباء: من العصر الجاهلي حتى سنة 2002" – كامل سليمان الجبوري – دار الكتب العلمية – بيروت –الطبعة الأولى – 2002 – 1424 هجرية.

دراسات في الظاهرة الدينية

**المسلمون ومؤامرات الإبادة– مكتبة مدبولي الصغير – مصر – 1994.

** الإسلاميون والعلمانيون من الحوار إلى الحرب

الطبعة الأولى – دار البيارق – الأردن – 1999.

الطبعة الثانية – مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع – الأردن.

** البابا شنودة والقدس: الحقيقي والمعلن – خلود للنشر – مصر – 2000.

** الشعراوي والكنيسة: ماذا قال الأنبا للشيخ؟

** الجماعات الإسلامية المصرية المتشددة في آتون 11 سبتمبر: مفارقات النشأة ومجازفات التحول – مكتبة مدبولي – مصر – 2005.

** الإسلام في مرمى نيران العلمانية الفرنسية: ما وراء الحرب الأوروبية على الحجاب والنقاب– مكتبة بيروت – مصر/ سلطنة عمان – 2010.

** طارق البشري: القاضي.. المؤرخ.. المفكر.. وداعية الإصلاح – سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي – مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي – لبنان – الطبعة الأولى 2011.

** عبد الوهاب المسيري: من المادية إلى الإنسانية الإسلامية– سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي – رقم 7 – مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي – لبنان– الطبعة الأولى 2008.

** مراجعات الإسلاميين (الجزء الأول) – تأليف بالاشتراك – مركز المسبار للدراسات والبحوث – الإمارات – سلسلة كتاب المسبار الشهري – العدد السادس والثلاثون – ديسمبر 2009.

** **السلفيون من الظل إلى قلب المشهد**– دار أخبار اليوم – مصر – 2012.

مؤلفات إبداعية منشورة

** **نقوش على قبور الشهداء (ديوان شعر)**.

مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر – الطبعة الأولى 1996.

** **عاصمة للبيع (مسرحية)**.

دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة – دولة الإمارات – 2000.

** **الحلم المسروق (ديوان شعر بالعامية)**.

مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر – 2003.

** **الندى والموت (ديوان شعر)**.

مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر – 2003.

** **القاهرة.. بيروت.. باريس (رواية)**

الدار العربية للعلوم – بيروت – 2006.

** **أهي القدس؟** – ديوان شعر – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – 2009.

** **الممر** – رواية – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – 2009.

مؤلفات أخرى منشورة

** أشهر الأحلام في التاريخ – مكتبة ابن سينا – مصر – 1993.

** التنبؤات والأحلام من الخرافة إلى العلم – دار التضامن – لبنان – 1996.

** ثقافة قبول الآخر– مكتبة الإيمان – مصر – مكتبة جزيرة الورد – مصر – 2007.

** مدخل إلى عالم الظواهر الخارقة– مكتبة بيروت – سلطنة عمان – شركة دلتا – مصر – 2007.

** التجسس التكنولوجي: سرقة الأسرار الاقتصادية والتقنية (دراسة في المجتمع ما بعد الصناعي)– مكتبة بيروت – سلطنة عمان – شركة دلتا – مصر – 2007.

** ثقافة السلام – دار ومكتبة الغد – مصر – 2009.

تأليف بالاشتراك

** إيران – مصر: مقاربات مستقبلية – (تأليف بالاشتراك) – تحرير: توفيق شومان – مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي – بيروت – سلسلة الدراسات الإيرانية/ العربية – رقم 1– الطبعة الأولى – 2009.

** يوميات الثورة المصرية – (تأليف بالاشتراك) – مركز الجزيرة للدراسات – قطر – 2011.

** الحركات الإسلامية في الوطن العربي – (تأليف بالاشتراك) – إشراف: الدكتور عبد الغني عماد – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – 2013.

** السعوديون الشيعة: الفكرة والإشكاليات – مركز صناعة الفكر – السعودية – 2015.

** المجتمع المدني السعودي: الملامح والأدوار – مركز صناعة الفكر – السعودية – 2016.

أعمال حققها

** ديوان أمير الشعراء أحمد شوقي (الشوقيات) – تحقيق – مكتبة الإيمان – مصر – مكتبة جزيرة الورد – مصر – 2007.

** ديوان الشاعر حافظ إبراهيم – (تحقيق) – مكتبة الإيمان – مصر – مكتبة جزيرة الورد – مصر – 2009.

أعمال أعدها للنشر أو حررها

اكتشف وأعاد نشر رواية: "اعترافات حافظ نجيب: مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن" للمغامر المصري حافظ نجيب،

وهي الرواية التي اقتبس عنها المسلسل التلفزيوني المصري الشهير "فارس بلا جواد". وقد قدم لها وألحق بها دراسة عن حياة مؤلفها.

** اعترافات حافظ نجيب: مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن (إعداد للنشر).

الطبعة الأولى – 1996 – دار الحسام – لبنان – مصر.

الطبعة الثانية – دار الانتشار العربي – بيروت – 2003.

** حرر (بالاشتراك) موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" – 8 مجلدات – لمؤلفها المفكر العربي الإسلامي المرموق الدكتور عبد الوهاب المسيري – دار الشروق – مصر – 1998.

** حرر (بالاشتراك) موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" – لمؤلفها المفكر العربي الإسلامي المرموق الدكتور عبد الوهاب المسيري – نسخة ميسرة ومختصرة (مجلدان) – دار الشروق بمصر بالاشتراك مع مركز زايد للتنسيق والمتابعة بدولة الإمارات – 2004.

** القمة الأمريكية السعودية الأولى: القمة السرية بين الملك عبد العزيز ابن سعود والرئيس روزفلت (البحيرات المرة – 1945) – (تقديم وتحرير ودراسة) – بقلم: الكولونيل: وليم إيدي (أول وزير أمريكي مفوض بالسعودية) – ترجمة: حسن الجزار – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – شركة دلتا – مصر – 2008.

** دع القلق وابدأ الحياة – تأليف: ديل كارنيجي – إعداد وتقديم ودراسة – دار الحرم للتراث – مصر – 2009.

** كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس – تأليف: ديل كارنيجي – إعداد وتقديم ودراسة – دار الحرم للتراث – مصر – 2009.

** تربية المرأة والحجاب (ردا على قاسم أمين) – تأليف: محمد طلعت حرب (باشا) – إعداد وتقديم ودراسة – دار الغد للنشر – مصر – 2009.

** الليبرالية في السعودية: الفكرة.. الممارسة.. الرؤى المستقبلية – مركز صناعة الفكر – السعودية – 2013.

أفلام تسجيلية:

* دولة المنظمة السرية – الفكرة والإعداد والمادة العلمية – إنتاج قناة الجزيرة – قطر – 2009.

جوائز

** جائزة مؤسسة "اقرأ الخيرية" – مصر – المسابقة الثقافية للشباب لعام 1991 – المركز الثالث في مجال الشعر.

** جائزة مؤسسة "اقرأ الخيرية" – مصر – المسابقة الثقافية للشباب لعام 1992 – المركز الثاني في مجال المسرح عن نص ما زال مخطوطاً.

** جائزة أفضل قصيدة (المركز الثاني) من "المجلس الأعلى للثقافة" – مصر – 1999 – عن قصيدة "نقوش على قبر شهيدة".

** جائزة "الإبداع العربي" من: "دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة" بدولة الإمارات العربية المتحدة في مجال المسرح (المركز الثاني) عام 2000 – عن مسرحية "عاصمة للبيع".

** جائزة "أحمد فتحي عامر" في مجال الشعر (المركز الثاني) من "الهيئة العامة لقصور الثقافة" – مصر – الدورة الأولى – 2003.

** جائزة "أحمد فتحي عامر" في مجال الرواية (المركز الثالث) من "الهيئة العامة لقصور الثقافة" – مصر – الدورة الثانية – 2004 – عن رواية "القاهرة – بيروت – باريس".

** جائزة أفضل قصيدة (المركز الثاني) من "نادي جازان الأدبي" بالمملكة العربية السعودية في المسابقة الثقافية لعام 1423 هجرية – عن قصيدة "بقصائدي ويقيني".

مساهمات أخرى

**مشرف على تحرير الصفحة الدينية بجريدة الدستور – مصر (2005 – 2008).

** قُدِمت ورقته الفكرية: "ماذا أعطى الإسلام للبشرية" في أول مؤتمرات "اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم" (لندن – نوفمبر 2002).

** شارك في العديد من المؤتمرات العلمية والثقافية في: مصر، لبنان، ليبيا، الإمارات، والعراق.

** يشارك في إعداد برنامج تلفزيوني تاريخي باسم "الفهرس" يبث على قناة دريم الفضائية المصرية ويقدمه الإعلامي المعروف الأستاذ إبراهيم عيسى. (2007)

** عرضت فرقة "مسرح دبي الأهلي" الإماراتية مسرحية "مملكة للبيع" (إعداد وإخراج عبد الله صالح) المقتبسة عن مسرحيته "عاصمة للبيع" – دبي – يوليو 2009.

** شارك في عشرات البرامج التلفزيونية والإذاعية الثقافية والسياسية في مختلف القنوات الفضائية المصرية والعربية.

** عضو اتحاد كتّاب مصر.

للتواصل:

هاتف: 00201001761266

E-Mail: mmshikh@hotmail.com